
أنيس منصور
أظافرها
الطويلة

أنيس منصور

أظافرها الطويلة



اسم الكتاب: أظافرها الطويلة.
المؤلف: أنيس منصور.
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: الطبعة الثانية - إبريل 2009م.
رقم الإيداع: 2007 / 18486
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2495-5

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 33466434(02)-33472864(02) فاكس: 33462576(02) ص ب 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - السادس من أكتوبر.
ت: 38330287 (02) - 38330289 (02) - فاكس: 38330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص. ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 25909827 (02) - 25908895 (02) - فاكس: 25903395 (02)

مركز خدمة العملاء: (02) 25909827
البريد الإلكتروني لخدمة العملاء:
customerservice@nahdetmisr.com
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدي)
ت: 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة: 13 شارع المستشفى الدولي التخصصي - متفرع من شارع عبد السلام عارف - مدينة السلام
ت: 2221866 (050)

الموقع الإلكتروني: www.nahdetmisr.com

خدمة العملاء: 16766



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

حتى لايكون الموت أقوى من الحياة!

حتى لا يرتكب أحد هذه الحماقة - حماقتي! في عشرين ألف طالب وطالبة من كلية آداب جامعة المنصورة وزعت 14 جائزة مالية للأول من كل قسم من أقسام كلية الآداب، كل سنة وعلى حسابي!

أما السبب فهو ألا يحاول أحد الانتحار كما حاولت، فقد كان ترتيبي الأول في جميع مراحل التعليم الابتدائي والثانوي والجامعي، ولكن «الآه» طول الليل والنهار كانت الكلمة الوحيدة لأبوين انفرد بهما المرض، فتساقطت كل الحروف الهجائية ولم يبق منها إلا: آه.. قصيرة وطويلة ومحبوسة مع السعال والنزيف.

طبيعي ألا أكون أنا الشاغل الأوحد، وحتى لو كنت آتي لهما بأجمل الأخبار وأسعدها فهما غير قادرين على الابتسام ولا الضحكة ولا السعادة بواحد من أبنائهما الأحد عشر.

وأقدمت على ما أقدم عليه نجيب محفوظ وأنقذه أحد زملائه، وأنقذتني الممرضة التي تعطي أمي الحقن، ولكن لم أشعر بالراحة؛ لأنها أنقذتني بل ازددت تعاسة، فلو كنت انتحرت لكان عذاب أمي مضاعفًا، وأنا تمنيت من الله أن تموت أمي قبلي حتى لا تتعذب من

بعدي، ولكن احتفظت كالأستاذ العقاد بزجاجة من السم بين كتبي، فقد هانت الدنيا وهنت على نفسي. وفجأة وجدت أنه لا معنى لأي شيء وأن محاولاتي فاشلة في أن أرسم الدنيا وأوزع عليها المعاني والأهداف، حتى هذا وجدت أنه لا جدوى ولا معنى ولا أهمية.

وكان العالم الجغرافي جمال حمدان أشجع فقد انتحر، والشاعر الساخر صلاح جاهين أيضًا، والأديب همنجواي وغيرهم من النابهين الذين صفوا حسابهم مع الدنيا فكانت ودائعهم صفرًا والفائدة عليها صفرًا!

ولا أذكر متى استردت دنياي اعتبارها، واستقرت المعاني في الكلمات وبرزت الشمس والقمر ولمعت النجوم واعتدل الميزان في يدي، لقد احتجت إلى وقت طويل أن أقدم أوراق اعتمادي لدى صاحبة الجلالة الدنيا. أو هي تقدم أوراق اعتمادها، وأن نتعايش معًا، وتذكرت عبارة قالها الشاعر جيته للفيلسوف شوبنهور: إذا أردت أن تجعل للدنيا معنى فاجعل لنفسك معنى.

فالدنيا تنبع منك ثم ترتد إليك! وتعلمت حكمة أخرى، يجب أن تعقد صلحًا مع سلبيات الناس وأن تصافح وتعانق وتقبل، وقبلت يدي ظهرًا لوجه، وكانت هذه البداية لما لا نهاية له من القبلات!

أقرأ ولا أقرأ لهؤلاء!

أنا أقرأ أكثر مما أكتب، وكثيرٌ من الذي أقرؤه أفضلُ من الذي أكتبه، وفي نفس الوقت لا أستطيع أن أقرأ لكل الذين يكتبون في الصحف العربية والصحف الأوروبية ولكن - منتهى الصراحة- هناك كتاب أحرص على قراءتهم، لأسباب كثيرة.

فهذا كاتب رصين عاقل جاد، وفي الذي يكتبه يُلاحَظ أنه قد تعب في الحصول على المعلومات وتعب في توظيفها، وحريص على احترامك وعلى احترام نفسه. وهذا كاتب ظريف يرى من الدنيا جوانب لا تخطر على بالك، وهي مقدرة، ثم إنه يدغدغ قضاياه فيضحك أيضًا، وهذا فن بديع. وهذا كاتب يغترف من المعلومات الكثير ويقدمها لك بمنتهى التواضع كأنه لم يبذل جهدًا في جمعها، والحقيقة أنه قد تعب، ولكنه متواضع لا يمن عليك بما اهتدى إليه، وأنت ممتن له.

وهذا كاتب يحاول ولكنه لايفوز إلا بالقليل، والأديب أوسكار وايلد يهب للدفاع عنه فيقول: لا تلم عازف البيانو، إنه يحاول، وليس عندك وقت لأن ترعى من يحاول فمرة ينجح ومرة لا. وهذا كاتب أحب أن أتفرج عليه، وليس كثيرًا، فهو يستعرض قدرته على التنظير، ولذلك

يأتي بتراكيب غريبة عجيبة، تدل على قدرته ولأن تراكيبه مكثفة فهو يرهقك، وليس أسهل من الهرب منه. وهذا كاتب معماري، أي قادر على إقامة الصروح المنطقية. وهذا علم وفن ولكن أسلوبه ليس جميلاً. إنه يضع الأحجار والخرسانة المسلحة في شكل قوي، ولكنه ليس جميلاً. وكان هذا هو شعوري عندما قرأت الأستاذ العقاد لأول مرة، وعندما وصف الأستاذ العقاد أولَ مقال قرأه لي بأن أسلوبي قد أعجبه. كان يومًا أسودَ. إذن لقد أعجبه لأنه قريب من أسلوبه، وحزنت وأمسكت مقالي وكتبته عشرين مرة وجردته تمامًا من كل التراكيب الفلسفية، فقد كنت حديثَ التخرج في الجامعة وما زلت أسيرًا للعبارات الفلسفية الخشنة!

أما طه حسين وتوفيق الحكيم والمازني فهم أصحاب أساليب أرق وألطف وأنعم، وأجمل، فإذا كان العقاد هو المهندس المعماري فطه حسين هو الرسام الرومانسي والحكيم هو الذي يغزل بالحرير.

ثم إنني حريص على بعض الكتاب الذين لا أحبهم، لا أحب أن أكتب مثلهم ولابد أن أقرأ لهم حتى لا أكتب مثلهم، عملاً بما جاء في ديوان «بستان الورد» للشاعر الفارسي سعدي، ففي ديوانه أن واحدًا سأل: ممن تعلمت الأدب؟ فقيل له: من واحد قليل الأدب، كلما فعل شيئًا امتنعت عنه!

وغيرهم وفي لغات مختلفة متعة وسعادة ونشوة.. إنهم يقولون كلامًا جميلاً ويرسمون لوحاتٍ بديعةً ويعزفون أنغامًا أبقى.

هل تعرف أبطال هذا الزمان؟!

الطبقة الوسطى هم الناس الذين ينكرون ماضيهم ويستنكرون حاضرهم.. الطبقة الوسطى فيها كل عيوب الطبقة الدنيا، وطموحات الطبقة العليا.. الطبقة المتوسطة هي التي تهاجم فلانًا أو تؤيد علانًا.. فهي لا تهاجم مبدأ، ولا تدافع عن مبدأ.. أي لا تدافع عن قضية، أو تهاجم قضية.. وإنما قضيتها ألا تكون لها قضية.. ولذلك ليس لها بطل، أي الشخص الذي يتقدم الصفوف مضحيًا بحياته من أجل مبدأ.. من أجل قضية.. فالطبقة المتوسطة هي طبقة بلا بطولة! وقد تعددت التعريفات لهذه الطبقة الواسعة العريضة التي هي القوة المحركة للمجتمع. وهي التي تفرض معانيها وقيمها على الحاضر والمستقبل.

ففي روسيا، ظهرت رواية تتحدث عن الذين أعمارهم حول الثلاثين عامًا. الذين رأوا غروب الاتحاد السوفيتي وأفوله، ثم ظهور شيء جديد أو معنى جديد أو أمل أو خيبة أمل بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. هذه الرواية لأديب اسمه سرجاي مينايف. الرواية اسمها «حياة شخص تافه»، وهو مدير لإحدى الشركات الأجنبية في روسيا، نهاره عمل، وليله في الكباريهات حيث البنات الحلوة واللاتي عندهن استعداد لأن يقمن بأي عمل مقابل أي أجر.. لا يهم اسم هذا العمل.

ولا يهم أبدًا اسمها هي: جاسوسة.. عميلة.. غانية.. الاسم لا يهم.. المهمة هي التي تهم. والأجر هو الذي يهم أكثر. هذه الرواية أصبحت أكثر الأعمال الأدبية انتشارًا. وهي مختلفة عن هذه الممارسات الصحفية التي اتخذت لها عنوانًا: طبع القبلات ثم نشرها.. تمامًا كما حدث للأميرة ديانا، فكل الذين عملوا معها ومن أجلها كتبوا مذكراتهم.. غرامياتهم.. سفالاتهم ونذالاتهم، المهم: أنهم طبعوا القبلات ثم نشروها وفضحوا الأميرة وتقاضوا أجرًا عن ذلك. فما اسم هذا العمل؟ اسمه سفالة ونذالة. ولكن أحدًا لا يستنكر ذلك.

وهذه الرواية تذكرنا برواية أخرى ظهرت من 150 عامًا للشاعر الروسي الرومانسي الشاب (27 عامًا) لرمونتوف الذي هاجم القيصر في قصيدة أدخلته السجن.. فقد هاجم القيصر دفاعًا عن أمير الشعراء الروسي بوشكين. فدخل السجن وخرج من السجن وهاجم القيصر فدخل السجن مرة أخرى. ومات في معركة بالسجن.. تمامًا كما حدث للشاعر بوشكين أيضًا.. هذه الرواية اسمها «بطل هذا الزمان» يتحدث فيها عن نفسه ولكن الفرق كبير بين شاعر بطل، يدافع عن بطل ويدافع عن الحرية ويهاجم القيصر الذي وأد الحرية والأحرار، فبطل ذلك الزمان فنان موهوب وصاحب قضية دافع عنها حتى السجن وحتى الموت، أما هذا الزمان فلا بطل ولا بطولة!

وشعار الطبقة الوسطى فيما بعد الاتحاد السوفيتي، وما بعد الحروب: البقاء بلا قضية والمثل الأعلى على أيام الشاعر لرمونتوف هو: البقاء للأنبل.

وإذا لم تستطع أن تقرأ رواية «حياة شخص تافه» أي أبطال هذا الزمان.. ولم تستطع أن تقرأ رواية الشاعر لرمونتوف «بطل هذا الزمان»، فانظر حولك واقرأ ما استطعت من الصحف. وتساءل عن أي شيء يتكلمون، عن أي شيء يدافعون.. من أجل أية قضية يعيشون ويموتون؟! وسوف تجد الإجابة: إنك لا تستطيع أن تفعل شيئًا لأي أحد إنقاذًا من أي أحد!

كيف لا أقول: نعم!

لم أتردد لحظة واحدة.. وقلت: موافق وأنا مستعد في أي وقت! ويبدو أنني تسرعت.. ولكن حبي للسفر في أي وقت إلى أي مكان هو الذي سحب لساني ووضع عليه حرفين هما: ok

أما التردد بعد ذلك فلأن مدينة «مورمنسك» الروسية مدينة بيضاء على مدار السنة – أي جليدية – الأرض والأسطح والطرق الصاعدة والهابطة من الجبال حولها.. ولا أعرف على سبيل اليقين إن كانت الألوان البيضاء البعيدة جبالاً أو هضابًا أو وديانًا.. فأول مرة رأيت فيها هذه المدينة كانت ليلاً – وأرجو أن تتحفظ على كلمة (رأيت) هذه – وكل الذي أعرفه في تلك الليلة أن حاولت المضيفة الروسية أن تقول بلغة إنجليزية مدشدشة إن الطائرة سوف تهبط في الدائرة القطبية الشمالية. وإن درجة الحرارة 38 مئوية تحت الصفر. وإن المرجو من السادة الركاب إذا خرجوا من الطائرة ألا يضع أي واحد يده على أنفه أو في أنفه أو على أذنيه مهما أحس بأكلان أو وخز.. لماذا؟ لأن البرودة من الممكن أن تجمد الأنف والأذنين.. فإذا لمسها أي واحد سقطت في يديه! وتولانا الخوف والرعب من هذا الذي سمعنا وسوف نرى.. وتمنيت ألا نرى. وهبطت الطائرة الروسية

العملاقة على أرض شديدة البياض ولا نعرف كيف لم تنزلق الطائرة فيستحيل على قائدها أن يوقفها.. أجلت الإجابة عن هذا السؤال إلى ما بعد.. وتوقفت الطائرة ونزلنا منها نتساند على سلم طويل مرتفع، وبسرعة اندفعنا إلى الأبواب الخشبية المغلقة التي يتسلل من ورائها ضوء باهت.. وهو يتسلل خوفًا من البرد.. أو كان ضوءًا قويًا ولكن البرد قضى عليه.. وفي داخل هذا المطار الصغير جلس الروس يضحكون وهم يلعبون الشطرنج.. وكان المطار ساخنًا مريحًا للأعصاب ولم يطل هذا الدفء فنودي علينا أن نعود إلى الطائرة بدون لمس الأنف والأذن! فهل هذا يغري بالزيارة مرة أخرى؟ لقد تلقيت كتابًا عن مورمنسك الجديدة – أكبر مدينة في الدائرة القطبية الشمالية. بها نصف مليون نسمة.. ومنها خرجت السكك الحديدية إلى مدينة سانت بطرسبورج وسوف تمتد منها إلى أمريكا أنابيب الغاز تحت الماء.. وهذه المدينة كانت قرية صغيرة. ولكنهم استخدموها في الحرب العالمية الأولى.. ثم في الحرب العالمية الثانية.. وكبرت واتسعت وظهرت بها متاحف تسجل معارك أبطالها وأبطال الحلفاء في الحروب.. وهي موطن الراقصات س وص و ك والمطربات الجميلات: ف ول. ون.. وشوارعها مقابر مفتوحة ولا ترد الأموات والأحياء، وبها أجمل عيون وأبدع بشرة وفيها تستطيع أن تتزوج في ساعة وأن تتحرر من هذا الزواج في دقيقة! ولما قرأت قلت: نعم.. أذهب حتى لو كان هذا كله نكتة، فأنا لا أستطيع أن أقول: لا لأية طائرة تتجه إلى القطب أو خط الاستواء!

نهايتنا بعد ثلاثين عامًا

كل يوم يطلع علينا علماء الفلك بأنه قد حان موعد فناء الأرض وهلاك الإنسان، كأنهم لا يريدون الحياة على هذه الأرض، وأنهم لذلك يتعجلون نهايتها ويتعجلون هروبنا إلى أي كوكب آخر.

في الأسبوع الماضي أرسلت (مؤسسة د – 612 لإنقاذ كوكب الأرض)، برقية إلى الكونجرس الأمريكي تقول: إنه تحددت ساعة ويوم هلاك كوكب الأرض ومن عليها في الساعة الحادية عشرة و35 دقيقة يوم 3 إبريل سنة 2036 ميلادية ومطلوب حل سريع، أي مطلوب من الكونجرس اعتماد مبلغ من المال لاتخاذ قرار عاجل لإنقاذ الأرض، ولكن إنقاذنا من ماذا؟ إنقاذنا من جسم كبير اسمه (أبو فيس) وأبو فيس هذا اسم إله الدمار عند المصريين القدماء، فهذا الحجر يبلغ عرضه ألف قدم، وهذا الحجر في مدار في الفضاء وفي هذه الدقيقة والساعة واليوم الذي حدده العلماء، سوف يرتطم بالأرض ويكون له أثر أقوى من تسونامي المحيط الهادي والإعصار كاترينا وزلازل سان فرنسيسكو، أو ما يعادل 880 مليون طن من مادة ت. ن.. ت.. أو ما يعادل سبعين ألف قنبلة ذرية مثل قنبلة هيروشيما.

سألت عالم الآثار المصري د. زاهي حواس، فقال إن (أبو فيس) هذا ليس إلهًا فرعونيًا، وإنما هو أحد آلهة الهكسوس، الذين جاءوا إلى مصر عبر تركيا وفلسطين، وأغاروا عليها وأقاموا فيها 150 عامًا، فما هو الحل؟

الحل هو أن يبحث علماء الفضاء عن طريقة لإخراج (أبو فيس) عن مداره، حتى لا يرتطم بكوكب الأرض، ولكي تخرجه عن مداره يجب أن تتدخل بالضغط عليه، وذلك بأن تبعث له بسفينة فضاء. هذه السفينة لها جاذبية وسوف تشد (أبو فيس) بعيدًا، وبذلك يمر بالقرب من الأرض ولا يرتطم بها، ويكون ذلك بعيدًا عنها بضعة ملايين الكيلو مترات، أو بطريقة أخرى كأن يطلق العلماء مقذوفًا من فوق سطح القمر، هذا المقذوف يصيب (أبو فيس) ويزلزله فيهبط بضعة كيلو مترات عن مداره بعيدًا عن الأرض أو يطلق علماء الفضاء سفينة فضاء محملة بكتل من الحديد، ثم يسددون هذه السفينة إلى (أبو فيس) فتصطدم به وتحدث انفجارًا وتحطيمًا لجانب كبير منه. وتكون النتيجة إبعاد (أبو فيس) عن الأرض. ويرى علماء الفضاء الأمريكان أن كل شيء يجب أن يتم في العشرين عامًا القادمة، بحيث يمكن تضليل (أبو فيس) وتطويحه في الفضاء الخارجي. المهم أن يتم كل ذلك قبل الموعد المحدد بعشر سنوات على الأقل.

وقد تقدم أحد علماء الفضاء الأمريكي باقتراح قديم، وهو نسف (أبو فيس) بقنبلة ذرية نظيفة أي قنبلة قادرة على تحطيم جانب من هذا الجسم الخطر، ولكن بعض العلماء خاف من أن يتجه حطام (أبو فيس) إلى كوكب الأرض عامًا بعد عام، وبدلاً من تحطيم الأرض مرة، فإنها تتحطم عدة سنوات، ولا بد أن يتفق العلماء حتى سنة 2029، وإلا فالنهاية معروفة.

كثير من العلم كثير من الإيمان

عندما أعلن العالم الكيميائي الكبير، لينوس باولنج، أن فيتامين (ج) يطيل العمر، أحس علماء كثيرون أن الرجل قد كفر، أو أنه لم يكفر وإنما دخل في مرحلة التخريف. ولذلك ذكروا اسمه ضمن أسماء العظماء الذين ألقت بهم الشيخوخة على باب مستشفى الأمراض العقلية، مع أن هذا الرجل قد حصل على جائزة نوبل مرتين، مرة في الكيمياء ومرة من أجل السلام، ولم يشفع له علمه في أن يكون له رأي آخر، هذا الرأي انتهى إليه من تجربته الخاصة أو من تجارب الآخرين.

ولا بد أن هؤلاء العلماء سوف ينظرون إلى عالم آخر كبير هو فرانسيس كونلز رئيس (معهد الوراثة) في ولاية ميريلاند.. هذا الرجل يقول إن الله حقيقة علمية وليس واقعًا وجدانيًا. وقد أصدر كتابًا بديعًا عنوانه (لغة الله). وفي هذا الكتاب يؤكد أن الله موجود، وأن الطبيب يواجه حالات كثيرة لا شفاء منها ويفاجأ الطبيب بأن إرادة الحياة عند المريض، وأن إيمانه بالله أقوى من أي دواء. وتكون المفاجأة أن المريض قد شفي تمامًا مع أن الكتب تؤكد أنه لا علاج ولا شفاء.

ويقول د. كونلز (56 سنة): إن بعض الناس على يقين من أن الله يحبهم، وأن حب الله لهم هو الذي أنقذهم من المصائب والكوارث

الاجتماعية. ويحكي أن زملاء له من الأطباء قد التفوا حول فراش بعض المرضى وهم على يقين من أن المريض الذي رفض الدواء والطعام رفض أيضًا أن تكون هذه نهايته. ويتساءل الأطباء حول المريض الذي لا يكف عن الابتهالات إلى الله وكذلك الأقارب الذين جلسوا ووقفوا وناموا إلى جواره ولكن تساؤلات الأطباء ليست هي الدواء، وإنما هو الإيمان العجيب عند المرضى وإصرارهم على أن الله يحبهم، وأنه يحبهم لأنهم يحبونه، وأنهم بسبب هذا الحب انحلت مشاكلهم وهانت ويلاتهم ولا علاقة للعلم بمثل هذه المعاني، وإنما هي تدخل في كتب الدين والأخلاق.

ويرى د. كونلن، أن هذه غلطة كبيرة فلا فرق بين العلم وبين الدين، فالله وراء كل شيء ووراء كل حقيقة وكل عذاب وكل رحمة، وإنه هو وحده لا شريك له القادر على الدواء والشفاء، ولا يسع العلماء إلا أن يقولوا في نفس واحد: معجزة! ومعناها أن الله تدخل في حالة هذا المريض وكان تدخله رحمة بالمريض وحبًا له لأنه يحب أمه وأباه ويحب الخير للناس وأنه يؤمن بالله ويحبه فأحبه الله. ولو كان الذي يقول مثل هذه العبارات الأخلاقية واحدًا من رجال الدين، لقلنا: طبيعي أن يكون هذا رأي الدين. ولكن الذي يقول ومعه كثيرون هو من العلماء الذين يؤمنون بوضوح المعادلات الرياضية أي أن 2+2= 4، ولكنهم يرون أيضًا أن الله أقوى من كل البديهيات، وأن هذه البديهيات هي قيود وضعها الإنسان لنفسه واتخذ منها دليلاً على اليقين، ولكن الله أقوى من البديهيات، وأن لله لغة أخرى وحسابات أخرى، وأنه يجعل المستحيل ممكنًا والممكن مستحيلاً، وإذا كان الإنسان قادرًا على العلاج، فهل ينكر قدرة الله اللانهائية على ما هو أكثر من ذلك؟!

من أنت .. فين أنت ما اعرفش؟

في مثل هذا اليوم من عشرات السنين وقف الزمن وهاج البحر وثارت الريح ولم أجد مأوى ولا زورقًا يحملني من جزيرة كابري إلى مدينة نابولي حيث أبيت في أحد الأديرة التي يؤجرونها في موسم الصيف، انتهى. سألت صديقة إيطالية كثيرة البكاء لأتفه الأسباب، اليوم تستطيعين أن تبكي وتنظمي قصائدك الحزينة، اليوم هو يومك أيتها الخنساء!

وسألتني عن معنى الخنساء، فكذبت عليها وقلت إن معناها باللغة العربية: الجميلة، فكانت تقول: «أنا خنساء». فأقول لها: «خنساء ونصف».

وجاءتها فكرة، وأشارت إليَّ أن أمشي وراءها، ومشيت، ونزلت وطلعت، ولم أشأ أن أسأل، حتى لا يعاودها البكاء لأسباب كثيرة هي قادرة على اختلاقها!

ومضت هي تمر على الفنادق الكبرى في الجزيرة، فندق سيزاره أوجستو الذي نزل به الملك فاروق لآخر مرة، أي بعد خروجه من مصر، ونزلت وراءها، هي تنطلق كأنها ماعز رشيق. وعلى فكرة كلمة

«كابري» باللغة اللاتينية معناها الماعز؛ فهي جزيرة الماعز، إما لأنها كانت كذلك فيما مضى وإما لأن الطرق فيها صعبة جدًا لا يقوى على السير فيها إلا الماعز!

ووقفنا أمام مقهى صغير، وصاحبته سيدة عجوز كنت أداعبها ذهابًا وإيابًا. وقد وافقت السيدة على أن ندير لها المطعم حتى الصباح، ودخلت وسحبت غطاءها ونامت. وظهرت الشمس متأخرة في ذلك اليوم، وصحت السيدة وأشارت إلى غرفتها ما إذا أراد أحد منا أن ينام، أما أنا فلا أستطيع، وأما الصديقة الإيطالية الخنساء فقد نظمت أغنية أذهلتني، تقول الأغنية: «مين انت ما اعرفش، من أين وإلى أين وكيف كنا، على موعد؟ لم نكن على موعد، صدفة؟ لم يكن اللقاء صدفة، فقد اتفقنا على ذلك من قبل، متى يصبح كلامنا نارًا، وشوقنا جحيمًا، ولقاؤنا الغريب قمة الجمال والعذاب، مين انت؟».

أما الذي أذهلني فإن لمحمد عبد الوهاب أغنية تقول: «مين أنت ما اعرفش، مين انت ما اعرفش».

ولا عبد الوهاب ولا مؤلف الأغنية زارا «كابري» وداخا بين الأزقة والطرقات بحثًا عن مقعد يجلسان عليه ويستسلمان لدقيقة واحدة من النوم من 53 عامًا بالتمام والكمال!

حرام.. ليست عندها سيارة!

أكثر أغنيات المطربة البديعة فايزة أحمد قد سمعتها بالتليفون، أرفع السماعة أجد فايزة تغني، وأحاول أن أقنعها أنه يجوز تكون النمرة غلط، أو يكون المستمع أي واحد آخر: الخادم، أو السكرتير، هي قررت أن تغني، ولا يهمها من صاحب الأذن على الطرف الآخر.

وكانت فايزة أحمد تغني في أي وقت، وهي تأكل وهي تشرب وهي في السيارة أو وحدها في أي مكان، بل كثير من مطربي مصر قد غنوا في مكتبي أو في بيتنا. كانوا صغارًا، ولا يجدون حرجًا في أن يسمعهم أي أحد، وأن يلتقط لهم صورًا ينشرها إعلانًا عن موهبة جديدة!

والشاعر مأمون الشناوي هو الذي اكتشف المطرب هاني شاكر، وكان يمر علينا في مكاتبنا لنستمع للصوت الجديد، ولم نكن نعرف أنه سوف يكون موهبة بديعة الأداء هادئ النبرة رومانسيًا رقيقًا.

والموسيقار بليغ حمدي هو الذي اكتشف المطربة عفاف راضي، وكان يعيب صوتها أن به صدى أوبراليًا، وكنت أقول إن صوتها خواجاتي، وأذكر وأنا في السعودية عندما جاء أحد الشبان السعوديين وعرفني، وقال عن عفاف راضي: يا أخي حرام عليك، يكفي أن ما عندها سيارة!

ولما كتبت هذه الحكاية الطريفة، جاءتني عفاف راضي بالبنطلون الجينز ومعها الميكروفون وطلبت مني أن أحكي هذه الحكاية وحكيتها، وأذعتها، وبعد سنوات جاءني شاب وقال لي: أنا السعودي الذي قابلك في السعودية وحدثك عن عفاف راضي، فقلت: عندها سيارة جميلة ما رأيك؟ فقال: يا أخي حرام عليك، ولكن ما عندها فيلا!

ومنذ يومين اتصل بي الموسيقار جمال سلامة وقال لي: فاكر الصوتين اللذين أعجباك في حفلة سفير عربي. أريدك أن تسمعهما الآن في التليفون!

تصدق بالله؟ سمعت الصوتين ولا أعرف كيف أنني استمعت إلى فايزة أحمد وهي تغني: ست الحبايب، ولما فرغت منها سمعتها تغني: غلطة واحدة في العمر كله، هل هذا خداع شخصي؟ هل هذا وهم؟ هلوسة، لا تهم التسمية، ولكن لم تستطع أذني أن تسمع لغير فايزة أحمد، ولما سألني جمال سلامة: ما رأيك؟ قلت: لا أروع من فايزة!

– فايزة مين؟

كلها ذهبت ولم تعد!

الموسيقار محمد عبد الوهاب كان لا يقرأ وإنما ثقافته في أذنيه، فهو يسأل ويستمع جيدًا، ولكن حدث أن أراد أن يقرأ أغنية للمطرب الفرنسي أزنافور، ولم تكن معه نظارة القراءة، فسألني، فأعطيته نظارتي، فوضعها في جيبه، وهي الآن من مخلفاته التاريخية!

وعندما ظهرت الصديقة لبنى عبد العزيز في أول فيلم لها مع عبد الحليم حافظ، كان دورها يقتضي أن تكون في يدها شنطة أنيقة، فأعطيتها شنطتي التي تلقيتها هدية من إحدى الشركات الألمانية، وظهرت الشنطة في الفيلم، ولا بد أنها رأت الفيلم عدة مرات، ولكنها لم تتذكر لحظة واحدة أن هذه الشنطة لها صاحب، وهذا الصاحب ينتظرها من أربعين عامًا! ويوم وقع الرئيس السادات على اتفاقية كامب دافيد أخرج قلمًا من جيبه، هذا قلمي، ووقع الاتفاقية ثم أعطى القلم لوزير خارجية أمريكا تذكارًا تاريخيًا، وكتبت مقالاً أصرخ فيه وأقول: قلمي يا ريس! ولما قرأ الرئيس السادات المقال قال لي: يا أخي فضحتني، أنا كنت مستعد أجيب لك ألف قلم! وأذكر أنني أهديت الرئيس السادات طاقمًا من البايب (الغليون)، وكان طاقمًا فخمًا، وفي كل مرة يدخن الرئيس يقول: هذا الطاقم هدية من أنيس!

شكرًا يا ريس. ولما ذهبنا إلى إسرائيل لأول مرة أهدتني الزميلة سما دار بري طاقمًا من أكواب عليها تمثالان للسادات وبيجين مخمورين تمامًا، وحملت الطاقم للرئيس وظل يضحك ثم طلب المزيد من هذه التماثيل المضحكة! وعندما جاءت ريتا هيوارث وزوجها الأغاخان إلى مصر وقفنا حولهما، وتلفت الأمير أغاخان يسأل إن كان معي أي مبلغ من المال لكي يستأجر أي تاكسي إلى السفارة الإسبانية فأخرجت من جيبي ورقتين كل منهما بخمسة وعشرين قرشًا، ورقة أعطيتها له والثانية طلبت منه ومن زوجته أن يوقعا عليها!

وفي ليلة عشاء في مكتب كامل الشناوي بجريدة «الأهرام» رأتها الفنانة ليلى فوزي وقالت لي: ممكن أتفرج عليها وسوف أعيدها لك غدًا، ومضت أكثر من خمسين عامًا ولم تعد الورقة التاريخية، وسألت ليلي فوزي وسألت زوجها المذيع جلال معوض الذي سألني: ريتا هيوارث مين؟! وعندما ظهر كتاب (دكتور زيفاجو) للكاتب الروسي باسترناك كانت في مصر نسخة واحدة عندي، طلب مني الكاتب الكبير مصطفى أمين أن أعير هذه النسخة للرئيس عبد الناصر، وبسرعة رحت أقلب في النسخة وأمحو كل الخطوط والعلامات التي تدل على اهتمامي الخاص بالعبارات والمعاني، وأرسلت النسخة للرئيس عبد الناصر وذهبت النسخة إلى حيث ذهب الرئيس، ولا حس ولا خبر!

كلها في اتجاه واحد. ولم تعد!

بل لا راحة في وادي الراحة!

كان من عادة الرئيس السادات بعد الاحتفالات بنصر أكتوبر أن يذهب إلى وادي الراحة في سيناء.

ذهبت معه وكنت ثالث ثلاثة: هو والوزير حسب الله الكفراوي وأنا، وكذلك القارئ الطبيب نعينع، وكنا نجلس في مكان من وادي الراحة نشرب الشاي بالنعناع والشيخ نعينع بصوته الجميل السماوي يقرأ قصة موسى عليه السلام.

وفي آخر مرة صباح يوم 6 أكتوبر الحزين سألني الرئيس إن كنت سأسافر معه إلى وادي الراحة، قلت إنني أرسلت حقائبي إلى الطائرة. وسألني إن كنت سأشهد العرض العسكري، فاعتذرت بأنني سأفرغ من تجهيزات مجلة «أكتوبر»، ثم أسبق الرئيس إلى قرية ميت أبو الكوم، ومنها نسافر معًا إلى وادي الراحة!

وشاء الله ألا يسافر، فقد اغتيل في يوم عيده، وعيد القوات المسلحة وكل العرب! ولم أسأل الرئيس السادات عن اسم «وادي الراحة»، من الذي أطلق هذا الاسم، ومن الناحية التاريخية لم تكن هناك راحة في هذا الوادي، فموسى عليه السلام صعد يكلم ربه، والتوارة تقول إن

الوصايا العشر قد نزلت عليه: لا تسرق لا تزن.. إلخ، وعندما هبط موسى من الجبل وجد قومه قد صنعوا عجلاً من ذهب وراحوا يعبدونه، فغضب منهم ولعنهم!

فلا موسى استراح ولا قومه، ولا كانت الراحة هي سبب هجرتهم من مصر، يطاردهم جيش فرعون، فلا راحة في الهروب أربعين عامًا في سيناء، سألت أهل الذكر، فقالوا: لعله السادات الذي اختار هذا الاسم، وادي راحته هو. وكنت المسئول عن مشروع بناء رمز توحيد الأديان أو مسالمة الأديان الثلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية، مبنى واحد يضم الجامع والكنيسة والمعبد، وكان السادات قد قرر أن يكون البناء من أموال المتبرعين، كل واحد من سكان كوكب الأرض بجنيه أو نصف جنيه، أو حتى ما يعادل عشرة قروش، ومن هذه الأموال يمكن بناء الرموز الثلاثة، والتعايش بين الأديان، وهذا التعايش موجود في حي مصر القديمة، ففيه توجد كنيسة أبو سرجة، التي اختبأ تحتها السيد المسيح ووالدته وخطيبها يوسف النجار هربًا من الرومان، وفي حي مصر القديمة مسجد عمرو بن العاص ومعبد بن عزرا.

وماتت الفكرة كما مات صاحبها، ومات السادات دليلاً على أنه لا سلام لمن ينادي بالسلام!

الذين ماتوا ليعيشوا أكثر من مرة!

فرق كبير بين أول من نزل على سطح القمر وبين من سينزل على سطح المريخ وبين الذي صعد الهملايا حتى بلغ قمة إفرست. فالأول تحميه وتحرسه مئات العقول الإنسانية وألوف العقول الإلكترونية، وتلفت نظره إلى دقات قلبه وإلى حبات العرق على جبينه، ثم إذا نام أيقظوه، وإذا نسي الطعام ذكروه، فهو في أيد وعقول أمينة.

أما الذي يصعد جبال الهملايا ويبلغها لأول مرة في مثل هذا اليوم من 53 عامًا وعلى قدميه هو.. يتسلق الأحجار ويتوجع من التعب، ويصرخ من البرودة والعواصف الجليدية ويتعلق بالسلاسل والحبال ويقع وينكسر، ثم ينهض بيديه على قدميه ويواصل الطريق صاعدًا إلى فوق وحده بعيدًا عن الدنيا، فلا من شاف ولا من رأى، ولو أحد رأى فلا يستطيع أن يساعده.

وقد حاول كثيرون وفشلوا دون قمة الهملايا وقد أطلق الإنجليز على هذه القمة اسم إفرست وهو أحد الرواد في القرن التاسع عشر.

أما أول قمة إفرست فكان يوم تتويج الملكة إليزابيث الثانية، أما تتويجها فاحتفال سوف يتكرر كل سنة، ولكن بلوغ إفرست لأول مرة

كان هو الحادث الذي تفاءلت به الملكة، وهذا البطل هو النيوزيلندي إدموند هيلاري الذي كاد يموت على ارتفاع 27 ألف قدم – الإفرست ارتفاعها 29 ألفا!

وقد فشلت محاولات كثيرة جادة وشاقة وكانت أولاها في سنة 1921. وفي سنة 1963 نجح أول أمريكي في الوصول إلى إفرست، وفي سنة 1975 فازت أول يابانية، وفي 1978 أول إيطالي وأول نمساوي، وفي 1996 مات ثمانية من الأبطال حاولوا الوصول إلى القمة، ولكن اجتاحتهم وبمنتهى الوحشية عواصف جليدية.

وفي مذكرات البطل النيوزيلندي الفائز لأول مرة قال: «أكذب لو قلت إنني كنت أدري تمامًا بما أفعل، لأن الذي يحاول بلوغ القمة الجليدية المتوحشة به شيء من الجنون، فالجنون صفة مشتركة بين كل رواد البر والبحر والجو والفضاء، فأول عذاباتهم: الوحدة القاسية لدرجة أن الإنسان يموت أكثر من مرة وفي النهاية لا يعرف كيف قفزت البطولة من الموت».

وقال أيضًا: «ولكن السعادة بعد ذلك نوع من الموت اللذيذ، نوع من الموت وأنت على قيد الحياة، والإنسان يموت مرة واحدة، ولكن في هذه البطولات المتفردة يموت الإنسان ليعيش أكثر من مرة»!

هذه العناكب ما أحكمها!

نحن نقول: أوهن من خيط العنكبوت! غلط علميًا، فقد أثبت العلماء أن العنكبوت يفرز أنواعًا مختلفة من الخيوط، أحد هذه الخيوط أقوى من الصلب، نعم أقوى من الصلب، وقد جرب العلماء صناعة خيوط من نفس المادة التي يستخدمها العنكبوت فكانت أقوى خيط عرفته البشرية! والعنكبوت عادة ينسج خيوطًا، وتكون هذه الخيوط مصيدة للحشرات الأخرى، فلا تكاد الحشرة تقع فيها حتى يسرع إليها العنكبوت وينقض عليها، فينفذ سمه فيها فتموت، وقد يتركها معلقة في خيوطه، ليعود إلى التهامها في أوقات أخرى!

ومن المعروف أن أنثى العنكبوت تلتهم الذكر أثناء العملية الجنسية، أي قبل أن يفرغ منها، ثم تجعله طعامًا لصغارها، فإذا خرجوا إلى الحياة وجدوا لحم الشهيد والدهم طعامًا سائغًا لهم، وليست أنثى العنكبوت هي التي تفعل ذلك، وإنما أية أنثى، فالزوجة على استعداد لأن تشوي زوجها وتقدمه طعامًا لأولادها، فأولادها هم الأهم وهم من دمها ولحمها، أما الزوج فكائن غريب، أدى مهمته ومن الواجب أن ينصرف، وينصرف إن كانت فيه حياة! وفي ملايين السنين تعلم العنكبوت الذكر أن يحمي نفسه من الأنثى المتوحشة، فكان قبل

العملية الجنسية يلف أنسجته حولها فلا تقوى على أن تحرك فمًا أو رجلاً، وتظل مكتوفة تمامًا إلى أن يفرغ من العملية الجنسية ويهرب، بعض ذكور العناكب تفرز حول الأنثى خيوطًا مميتة فتظل الأنثى حبيسة هذه الخيوط حتى الموت، فتجيء مرة أخرى تلتهم الأنثى.

وقد استطاعت الأنثى في ملايين السنين هي الأخرى أن تحمي نفسها وصغارها فإذا جاءها الذكر استسلمت له ولسعته، وتكون من نتيجة هذه اللسعة أن تتم العملية الجنسية دون وعي منه، وفي نفس الوقت تحتفظ بجثته كاملة وتدفنها مع بيضها أو تضع بيضها فوق هذه الجثة، فإذا ظهر إلى الدنيا صغارها كانت لديهم وجبة جاهزة يومًا أو يومين. ويقال إن بعض العناكب والعقارب تفعل نفس الشيء مع ذكورها. فالرحالة الأمريكي جون جنتر يقول إنه رأى في المكسيك عددًا من العناكب الكبيرة متعددة الألوان والتفت إلى ذكر يمتطي أنثى، ولكنه بدلاً من أن يفرز مقبرة من الخيوط قضم عددًا من سيقانها فأبطل مفعولها والسبب أن العملية الجنسية عند هذا النوع من العناكب تستغرق وقتًا أطول فإذا لم يسارع بتحطيم سيقانها فإنها سوف تقبض عليه حتى الموت! ولكن الإنسان لم يتعلم حكمة العناكب، لا ذكرًا ولا أنثى!

كم تمنيت أن أكون شيوعيًا!

تمنيت أن أكون شيوعيًّا، أتفرغ للقراءة والكتابة، ولا أريد مالاً ولا جاهًا، وأي طعام يكفي وأي شراب وأي لباس في أي مكان، ولا أفكر في أن أملك شيئًا ابتداء من ملابسي حتى البيت والمكتب، يكفي أن أجد ما أقرأه، وأن أسافر مرتين أو خمسًا كل سنة إلى أي مكان في الدنيا، أي أجدد نشاطي وأفكر وأكتب وبس.

حتى ذهبت إلى روسيا ورأيت أن روسيا هي بلد القهر والظلم وتحطيم رقاب الناس حتى يكونوا قالبًا واحدًا، وكما تتشابه ملابس الجنود والعمال، فأفكارهم يجب أن تتشابه، وأن تكون واحدة، فلا حرية لأحد في أن يختار أو يختار، وإنما الحياة قالب والعمل قالب، والأمل قالب، كل شيء محدود جامد، له أول وآخر، وبالضبط، وعندما أعطيت بعض الحريات للروس كانوا يدفعوننا لكي تشاهد عيوننا كيف أصبح السوفياتي حرًا كأنه أمريكي أو فرنسي. ذهبنا إلى فندق روسيا ورأينا عددًا من الشبان قد ارتدوا الجينز الأمريكي ويرقصون طول الليل الروك أند رول. وفي رأي الروس أن هذه الخلاعة أكبر دليل على تحرر وتحلل الروس، كأنهم أمريكان أو سوف يصبحون كذلك!

وعندما ذهبت إلى مستعمرة (خلدة) في إسرائيل بالقرب من مدينة عكا، وفي هذه المستعمرة اليهودية يعيش الأديب الكبير أموس عون، ذهبت إلى بيت أموس وهو أكثر الوجوه إشراقًا وأكثر الناس إقبالاً على الحياة. والمستعمرة تتبع حزب العمال، ويمكن أن تقول شيوعية لا ملكية ولا فلوس، وهذا الأديب يكتب والمستعمرة تقبض وهي التي تنفق عليه وعلى رحلاته. وفي المستعمرة لا أحد يطبخ في بيته. هناك مطعم عام. وتعبت وانتظرت من يقدم لي الطعام، لا أحد، وكان لا بد أن أقف في الطابور وأن أختار طعامي وآكل وأغسل الأطباق بعد ذلك، ورأيت الوجوه حزينة كئيبة كأنهم في سجن وكأن أحكامًا قد صدرت بحبسهم مدى الحياة، أما الجريمة فإنهم اختاروا الشيوعية.

ومن يومها وأنا أكره الشيوعية والشيوعيين أكثر، ففي مصر أسوأ أنواع الشيوعيين، ولم أحترم من كل الشيوعيين الذين عرفتهم في مصر وخارجها إلا ثلاثة أو أربعة، ولولا أن أسماءهم لا تعني شيئًا للقارئ لذكرتهم. صحيح أن الشعراء والفنانين يلقون عظيم الاحترام في روسيا وكثيرًا من المزايا، طبعًا ما داموا يمشون على الخط ولا يخرجون عن الصف إلا لكي يهاجموا الديمقراطيات الغربية - كذبًا وخوفًا وطمعًا!

الكاريكاتير ليس الرسم وإنما كل شيء آخر!

الكاريكاتير ظهر في أوروبا في القرن السابع عشر في مدرسة للرسم بمدينة بولونيا في إيطاليا، المدرسة اسمها مدرسة كارتشي، وكانوا يرسمون الزوار بالتقريب، مجموعة خطوط ملونة للوجه أما الجسم فهم يختارون جسم حيوان أو طائر، أي أنه رسم سريع على بطاقات صغيرة. وكلمة كاريكاتير إيطالية ومعناها: المبالغة في الخطوط في الأنف والعينين والساقين، أو يبالغون في تصغيرها، ثم صار الهدف من ذلك هو النقد والسخرية من الشخص أو من الموضوع أو من الأحداث، وفي الأزمات يصبح الكاريكاتير سلاحًا قويًّا، وقد بلغ قمته في الحرب العالمية الثانية على جانبي المحيط الأطلسي!

والشاعر الإنجليزي بايرون هو صاحب العبارة الشهيرة: إن سلاح الكاريكاتير هو أقوى سلاح إنجليزي لم تستطع الأحوال الجوية أن تصيبه بالصدأ.

وفي القرن التاسع عشر في بريطانيا انتشرت الصور الكاريكاتيرية التي تهاجم العالم الكبير دارون صاحب نظرية «أصل الإنسان» وقد فهم الناس نظريته خطأ، فقالوا: إنه يرى الإنسان أصله قرد؛ ولذلك كانت السخرية منه ومن القرود، فجعلوا القرود تشبه

الإنسان، وجعلوا داروِن يشبه القرود! وانتقل الإنسان إلى الكارتون وهو كاريكاتير له حكاية مسلسلة وكذلك الكوميكس، وقد تطورت في أمريكا، فاتخذت شكلاً سينمائيًا بديعًا. ولم يعد الناس يحرصون كثيرًا على متابعة الكاريكاتير لكثرة المقالات الكاريكاتيرية أيضًا، ولصعوبة التعبير، فقد اختلطت القضايا والمشاكل، وأصبح من الصعب جدًّا أن تعرف من معك ومن ليس كذلك، وقد انصرف الناس عن القراءة وانتظروا أن يساعدهم أحد على الفهم.

العالم الفلكي الأمريكي ساجان كتب في مذكراته أن أمه كانت تطلب منه أن يكتب أسئلته الكثيرة جدًّا عن كل شيء، يكتبها في ورقة وبخط واضح، وحبذا لو كان جميلاً.. فإذا كتبها طلبت إليه أن يكتبها مرة أخرى وبشكل مختلف، وكانت هذه الأم تريد أن يكون خطه واضحًا وأن يعيد النظر في أسئلته، وقد لاحظت أنه يغير الأسئلة وترتيب الكلام، وبعد ذلك تجلس إليه وتشرح له مرة وأبوه يشرح له مرة أخرى.

يقول ساجان: لقد ولدت والعالم يتسع أمامي وورائي وفوقي وتحتي، لقد ولدت فلكيًا، كنت أحد الكواكب والنجوم! فلا هي شجرة ولا هي حجر، وإنما هي فوق دائمًا، متألقة دائمًا، فكيف لا أكون مثلها؟!

ولم يكن يعرف كل ذلك لولا أنه سأل وأن أمه أجابت!

متعتي الكبرى في مكان واحد!

عندي الكثير من صفات المتصوفين ولست واحدًا منهم، فأنا أصر على طعام واحد، ولو ظل ذلك سنوات، فأنا آكل ما أجده أمامي، ولا أشكو ولا أندم، وأصر أيضًا على لباس واحد، ولولا إلحاح الزمن حولي لبقيت هكذا حتى تبلى ملابسي. ويعلم أصدقائي أنهم الذين يشترون ملابسي وهم الذين يقولون: يجب أن تغير وأن تبدل. وأستطيع أن أجلس في غرفة وحدي ساعات، ساعتين، وخمسًا، وعشرًا، وأظل على ما أنا عليه من القراءة والكتابة مادمت أجد شيئًا أشربه، باردًا أو ساخنًا، ومن الممكن أن أنام على مكتبي دقائق، وفيها الكفاية. وليس عندي أولاد ولا تمنيت، فقد رأيت أبي يتعذب بأحد عشر ولدًا يأكلون ويشربون ويلبسون ويتعلمون ويحلمون ويفشلون وينجحون، وكمعظم الأولاد ليس عندهم امتنان للذين تعذبوا من أجلهم.

وعندما كنت صغيرًا كنت تلميذًا متفوقًا في الدراسة، وفي نهاية العام يطلب مني والدي: لابد أن آتي لك بهدية مادام ترتيبك الأول لا على المدرسة وإنما على مصر، ولم يحدث أن طلبت أو انتظرت، وإنما أجد والدي هو الذي يختار وهو الذي يقدم المكافأة، وإذا لم يقدمها فلم يحدث أن طلبتها.

ولا أعرف جاري، ولا حرصت على ذلك، وأحيانًا كثيرة أتبين أن هذه غلطة، ولكن لم أتعلم من أخطائي، ومعنى ذلك أن في أعماقي إصرارًا على أن أكون وحدي، قال مثل لاتيني قديم: لا يقوى على الوحدة المطلقة إلا حيوان أو إله. وأضاف الشاعر الألماني جيته إلى هذا المثل «الإنسان». وكان الفيلسوف الألماني شوبنهور يقول: قل لي كم ساعة تستطيع أن تكون وحدك في كل يوم أقل لك من أنت!

وأذكر أني كنت في رحلة طويلة بين أمريكا وأوروبا ولابد أن أشتري لأفراد الأسرة والأصدقاء ما يحتاجون إليه، ولم أجد صعوبة فكل الماركات معروفة، وعدت بكل ما طلبوا إلا صفحة واحدة، فالصفحة كلها تحتم أن أشتري ملابس وعطورًا من ماركة اسمها (لأنيس) ولم أجد أحدًا يعرف هذه الماركة، لا في أوروبا ولا في أمريكا، ولكن زوجتي قالت لي: ليست ماركة، إن هذه الأشياء كلها لك، لأنيس.. أي لحضرتك! ولم أتصور أن تكون هذه الأشياء لي؛ لأنني لا أريد شيئًا!

في طفولتنا: كل شيء صغير جامد ثابت!

كثيرون سألوني كثيرًا: كيف استطعت أن تعيش في الريف المصري القديم. وكانت الدنيا ضيقة خانقة وكانت المدرسة أو الكتاب – بتشديد التاء – تحت الأرض؟ ولكننا لم نره كذلك؛ فهو مثل كل شيء آخر اعتدنا عليه ولم نعرف غيره، فلا رأيناه دميمًا حقيرًا، وإنما هو جزء من اللوحة الطبيعية التي وجدنا أنفسنا فيها.. كل شيء ثابت في مكانه لا يتغير.. الشمس مشرقة من هنا من وراء شجرة كبيرة وبين نخلتين، ونعرف من هناك وراء قرية بعيدة.. تعكس أشعتها على الترعة. وعند الترعة يكون الفلاحون في حقولهم وحولهم طائر أبو قردان الأبيض وهو الطائر الفرعوني أبيس.. ساقاه طويلتان ومنقاره أيضًا. وهذا الطائر هو الذي علم الفراعنة أسلوب الحقن الشرجية؛ فعندما يصاب بالإمساك يملأ منقاره بالمياه ويدخله في مؤخرته، ومن المعروف أن مخلفات طائر أبو قردان كأنها مخلوطة بالصمغ، إذا سقطت على الملابس أحرقتها، وإذا سقطت على السيارات خرجت منها بصعوبة.

ولم نكن نعرف أن هناك حياة أفضل، أو مدارس صحية.. لها نوافذ وأبواب فوق سطح الأرض. ولا عرفنا الشوارع المرصوفة ولا النظيفة.

ولا عرفنا اللعب.. فالشارع هو ملتقى كل شيء. الأكل والشرب واللعب والخناق.. والذي تسميه في الريف شارعًا ليس هو الذي في المدينة.

ومع ذلك كنا نرى الدنيا كبيرة واسعة. وأنا كنت أرى شارع السكة الجديدة في مدينة المنصورة واسعًا جدًّا. تمامًا كالشوارع التي رأيتها بعد ذلك: شانزليزيه في باريس.. وفياناسيونالي في روما.. وأفنيو خمسة في نيويورك.. وجنزا في طوكيو.. وكرفر ستدام في برلين.. ولما عدت إلى المنصورة بعد أن رأيت القاهرة وجدت الشوارع ضيقة جدًّا. كيف كنا نراها واسعة يصعب عبورها؟!

وعندما كنا صغارًا كانت دنيانا كبيرة واسعة.. وعندما أصبحنا كبارًا صغرت شوارع الطفولة والبيوت.. والمدرسون والناس.. وكان الخفير أقوى رجل، والعمدة ملك الكون.. والمثل الذي يقول: من رضي بقليله عاش. وقد عشنا ولم نكن نعرف أن هذا الذي عندنا قليل أو كثير. إنه هكذا وبس، ونحن اعتدنا عليه، لا رضينا ولا غضبنا، إنها وكل حياتنا ودنيانا هي هي، لا تغيرت ولن تتغير.. فقط عندما انتقلنا إلى المدن عرفنا الفرق وعندما سافرنا إلى الخارج عرفنا الفوارق بين أجمل وأعظم ما لدينا، وما لدى الآخرين.. ومن هذه المقارنة جاء القلق والسخط والرغبة في التغيير، وكلها من المعاني الجديدة علينا، وهي بذور الغضب والتمرد والثورة بعد ذلك!

ولكن سيدتي لم تعط إلا القليل!

أساتذتي كثيرون في كل اللغات، ولا أستطيع أن أكون مثل العقاد وطه حسين والحكيم والرافعي وسارتر وهيدجر ونيتشه وشوبنهاور وموروا والجاحظ وأبي حيان التوحيدي وديورانت وغيرهم كثيرون أحبهم كثيرًا وأحب نفسي أيضًا، أعجب بأساليبهم، ولكن حرصي على أسلوبي أكثر. أحب العقاد.. ومنطق العقاد وقدرته الفذة على التحليل والتعليل، وأكره أن أكتب مثله.

أعجب بطه حسين وروحه الخفيفة وقدرته على الفهم والتعبير في عبارة جميلة مثل موج البحر يعلو ويهبط ويروح ويجيء، ولا أجدني مضطرًّا إلى أن أكتب مثله.

وأطيل النظر في أصابع توفيق الحكيم، وهو ينسج حريرًا من عمل مسرحيٍّ ظريف ساخر وممتع. وقد كتبت للمسرح والمسلسلات التلفزيونية ولم أجدني مضطرًّا إلى أن أجاري توفيق الحكيم، وهناك مؤلفون مسرحيُّون كثيرون سبقوا توفيق الحكيم.

وفي الفلسفة، أطلت الوقوف والاستماع والتأمل إلى كثير من عباقرة الغرب، وأدهشوني وأسعدوني، ولم أجدني مضطرًّا إلى أن أجاري

سارتر وأعيد تركيب الكلمات الصعبة مثل الفيلسوف هيدجر، ولا أجدني قادرًا على الأسلوب الخطابي البلاغي كما فعل نيتشه، ولا أستطيع حتى لو أردت، وليس هذا عيبًا، ولكني لا أريد ولا أرى ذلك ضروريًا أن هؤلاء العظماء مصابيح تضيء لنا على جانبي الطريق وفوقه وتحت أقدامنا، ونحن في ضوئها نتحرك ونعيش ونحب ونكره، إنني أمشي على «ريجيم» في الطعام، ولكن في الأدب والفن لا «ريجيم» بل إن معدتي تهضم الجاحظ كما تهضم البحتري وتهضم هيدجر كما تهضم ألان وموروا ومالرو وكامي وبرديائف ومئات غيرهم.

ولا أعرف أي هؤلاء أعمق أثرًا في نفسي وأمتع في خيالي. وإذا كانت المعدة لا تقوى على كل الطعام، فقد اعتدت على أن يهضم عقلي أي طعام وكل طعام، أحمد الله على هذه الشراهة العقلية. وما أصدق ما قاله علي بن أبي طالب: «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال». وأنا الطالب الأول القادر على أن يأتي بشيء من المال والمجد!

وهناك شرط واحد صعب هو أن تصبر وتثابر وتضحي بالكثير من أجل أن تحصل على القليل. والمثل القديم يقول: «إذا أعطيت كل وقتك للعلم أعطاك بعضه، وإذا أعطيته بعضك فلن يعطيك شيئًا».

وأستاذنا الفيلسوف الوجودي هيدجر يقول: «لقد ركعت عند قدمي سيدتي وانتظرت طويلاً في خضوع وخشوع تامٍّ، ولكن سيدتي محبوبتي لا تجود إلا بالقليل، ورضيت!»، أما سيدته فهي الحقيقة!

أنت سجين .. أنت حر!

لحن جميل للموسيقار العظيم سيد درويش يقول:

«أهو ده اللي صار

وآدي اللي كان

ما لكش حق تلوم علي»

ويقول: لا لوم على من عاش في ظل الاحتلال. فهو لا يملك قراره واختياره. ولكنه في نفس الوقت يطلب منا أن نتحد ونجاهد ونطرد الغاصب لإرادتنا وحريتنا. وكان ذلك نشيدًا ومنشورًا ثوريًّا جميلاً يحفظه الصغير والكبير. وهو في كل الأحوال يقول: لا تلمني فأنا مغلول اليد والعقل!

وكان الفيلسوف الوجودي العظيم سارتر يقول: إن الشعب الفرنسي لم يكن حرًّا، ولم يستمتع بالحرية إلا في ظل الاحتلال الألماني؛ لأن الاحتلال قد أعفاه من المسئولية.. فهو يستطيع أن يفعل أي شيء لأنه ليس مسئولاً.. إن شاء نام وإن شاء ارتضى الاحتلال وإن شاء سخط على كل شيء وعلى نفسه.. فلا لوم عليه. يكفي أنه عبد.. أنه أسير.. أنه قعيد.. أنه شيء يضعونه هنا وينقلونه من هنا إلى هناك.. لقد تحول من إنسان إلى كتلة من اللحم.. كرة يركلونها.. لعاب يبصقونه..

غثيان جسدي ونفسي وعقلي.. وكلها صفات من لا هوية ولا حرية ولا اعتبار له.. وهذه هي أقصى درجات الحرية الشخصية والقومية.. بفضل الاحتلال الألماني!!

وقد لخص كل ذلك سيد درويش في أغنيته الرافضة للاحتلال..

وفي رواية «ليكن اسمي جانتين» للأديب السويسري الألماني ماكس فريش يقدم شخصية رجل يتظاهر بأنه أعمى ويجلس في صالون السيدات مرافقًا لزوجته التي تصبغ شعرها وتسويه.. ولأنه تظاهر بأنه لا يرى، فقد رأى الكثير مما لا يعرفه المبصرون.. فالذي يتظاهر بأنه أعمى أو أنه أطرش، يرى ويسمع ما لا يستطيعه من يبصر ومن يسمع.. ويرى ماكس فريش أن عالم العميان عريان تمامًا لمن يتظاهر بأنه أعمى.. وعالم الطرشان متدفق متلاطم لمن يتظاهر بأنه أطرش!

وهو يدعو القارئ إلى أن يتظاهر بأنه لا يفهم ولا يقرأ.. أي أن يكون شخصًا آخر ليعرف.. أي أن يكون عاجزًا باختياره، فأنت لا تلوم الشحَّاذ على ما يفعله في الشارع وفي الناس.. فعذره مقبول مقدمًا، لأنه لا تعلّم ولا قرأ ولا فهم.. فهو مجرد من كل فن.. وهو حرٌّ يفعل ما يشاء.. متحرر من قيود المجتمع والذوق والقانون.

والفيلسوف سارتر صاحب هذه النظرية لم يستسلم، وإنما رفض حرية المحتلين وقاوم الاحتلال الألماني، وكذلك فعل الفيلسوف الفرنسي ألبير كامي.. كلاهما وملايين غيرهما رفضوا حرية الذل والهوان وارتضوا قسوة المقاومة وعقوبة التمرد على السلطات.

والإنسان حر في الحالتين: أن يكون ذليلاً حرًا، وأن يكون سجينًا حرًا، في اختيار شكل الرفض للقهر، مهما كان الزمن!

لا شيء يدل على أنه غني !

لا شيء يدل على أن الرجل الذي جلس إلى جواري مليونير.. آسف، مليونير ألف مرة..

ولكن ما الذي يدل على أنه يملك أي شيء أكثر مما أملك أنا.. لا البدلة ولا الساعة ولا «الكرافتة»، ولا الولاعة ولا السيجارة، بل إن كل شيء يدل على أنه يعمل سائقًا عند واحد، وليس من الضروري أن يكون مليونيرًا.. فالبدلة مكسرة - بدلتي أحسن- والساعة بجلدة سوداء - ساعتي أفضل.. الحذاء متآكل جدًا.. وحذائي أمتن.. ثم إنه كثير الابتسام.. ومجامل.. وهو الذي قام وقدَّم لي كوبًا من الماء.. وهو الذي قدَّم نفسه لي قائلاً: أنا فلان، والتي تجلس هناك زوجتي.. وقدمت له نفسي.. ونهض الرجل، وبمنتهى الحفاوة انحنى وصافحني مع أن اسمي ومركزي والدار التي أعمل بها لا يمكن أن يكون لها أية دلالة عنده.. ولكنه كرجل أعمال مجامل.. وكرجل أعمال ناجح جدًا.. فهو مجامل جدًا.. ولأنني رجل أقوال، فلست مجاملاً.

ولا بد أنني تصورت، كغيري من الناس، أن الإنسان الغني جدًا لا بد أن يكون مظهره كذلك.. البدلة لا تهم، فلا أقل من خاتم ثمنه مئات الألوف.. حتى لو وضع هذا الخاتم في أصبعه، فهناك ملايين

مثله من الأغنياء قد فعلوا ذلك.. ولكن الفقراء أمثالنا هم الذين يشعرون بأنهم فقراء.. فهم يكرهون أن يعرف الناس هذه الحقيقة.. ولذلك فإنهم يضعون كل ما يملكون في أصابعهم وفي أعناقهم وجيوبهم، ليتأكد لديهم أولاً، أنهم ليسوا فقراء.. وليرى الناس أنهم قادرون على شراء الخاتم الماسي والولاعة الذهبية و«الكرافتة الديور» والحذاء «الساكسون» والسيارة «المرسيدس».. إلخ.

ولكن الأغنياء جدًّا عندهم قناعة، وعندهم يأس بأنهم لا يستطيعون أن يحملوا كل ثرواتهم في جيوبهم أو أصابعهم أو على صدورهم.. وهذا اليأس مع البساطة جعلهم هكذا: لا شيء يميزهم عن بقية مئات الملايين من الناس الذين لا يملكون الملايين.

وبدلاً من أن ينفق أصحاب الملايين جانبًا من أموالهم على المظهرية ولفت نظر الناس إلى ثرواتهم، فإن قناعتهم وبساطتهم وفرتا لهم هذه المبالغ.. بينما الفقراء ينفقون المال الذي يحتاجونه على المظهرية، وبذلك تنطبق على الفقراء والأغنياء الحكمة التي جاءت في الإنجيل: إن الذي معه يعطى له. والذي ليس معه يؤخذ منه!

إلا أن أكون شيخا أزهريا!

لم يكن أبي جادًا عندما قرر أن أكمل دراستي في الأزهر ما دمت قد حفظت القرآن الكريم في التاسعة من عمري. فأحد أعمامي أستاذ للشريعة في الجامعة الأزهرية، ويلقى احترامًا عظيمًا من الناس وكلهم يقبلون يده – وأنا أيضًا!

ولنفس هذه الأسباب جمعت أمي حاجاتها وتركت البيت، لأنها لا تريد أن أكون أستاذًا معممًا مثل عمي وابن خالة لها. وكانت أحلام أمي أن أكون مثل قريبها إبراهيم باشا عبد الهادي الذي كان رئيسًا للديوان الملكي ورئيسًا للوزراء، على أي أساس راحت تحلم بهذا اليوم؟ لا يوجد أساس. ولكنها مؤمنة بأني سوف أكون شيئًا هامًا. على أي أساس؟ لا أساس، وإنما هي أحلام أمٍّ تحب ابنها وترى فيه تعويضًا عن كل متاعبها وهمومها.. ولذلك فلم يكن والدي جادًا في أن أذهب إلى الأزهر؛ فأمي تسد هذا الطريق. وهو يعلم أنها عنيدة جدًّا.

وكنت إذا ذهبت إلى صلاة الجمعة كانت أمي تحذرني من البقاء طويلاً في المسجد بعد الصلاة.. فهي تخشى أن (أندمج) في دور المشايخ. وكانت تمنعني من حفلات الذكر.. وهي عادة في الريف يذهب إليها الأطفال ويقلدون الكبار في الذكر.. وكان والدي صديقًا

لأحد أئمة أحد المساجد اسمه الشيخ (روحه). وكان الشيخ يتوسم خيرًا في هذا الطفل – الذي هو أنا. فأنا حفظت إلى جانب القرآن الكريم.. بردة البوصيري، ونهج البردة لشوقي، والهمزية النبوية. ولم يكن ذلك لشعور ديني عميق وإنما طفل ذاكرته قوية.. ويحفظ إلى جانب هذا الشعر الصوفي والديني قصائد في الغزل.

وفي يوم دعتني أمي للسفر معها وليس من عادتي أن أسأل أمي إلى أين. ولكن جمعت ملابسها وسافرنا. وبقينا أيامًا في بيت جدي. وعدنا إلى المنصورة. أما السبب فهو أن عددًا من المشايخ سوف يجتمعون في بيتنا بمناسبة عيد الأضحى. وشجعتني أمي على أن أصادق عددًا من الزملاء الأقباط على الرغم من أن أحدهما ابن قسيس ولكن هناك فارقًا كبيرًا بين القسيس والشيخ.. وعرفت فيما بعد لماذا تحرص أمي على أن أذهب إلى بعض أصدقائي وأبيت عندهم. لماذا؟ لأن أقاربي من المشايخ يجيئون إلى بيتنا. فوالدي هو عميد الأسرة وهو رجل صوفي.. شاعر صوفي جميل الصوت والصورة لطيف رقيق لابد أن يحبه الناس.. وأحبوه.

فقط عندما ذهبت إلى الجامعة ودخلت قسم الفلسفة. لم تعد أمي تعبأ كثيرًا بمن يجيء من المشايخ ولا بما يقولون، وكانوا يتمنون أن أكون شيخًا أزهريًا. وقد أيقنت أمي أن هذه آمال تأخرت. فأنا في مجال آخر. وقد انتصرت بآرائها على والدي وأعمامي وخالاتي.. يرحمها الله، لقد ماتت دون أن أكون رئيسًا للوزراء. والله لو أعطيت هذه الفرصة لرفضتها فلا أحد يسعده ذلك.. أو كان يسعده ذلك إلا أمي!

من أجل جراتسيا!

لأول مرة في حياتي أذهب في طائرة لأشاهد المباراة النهائية في كأس العالم. فكرة لا بأس بها: استأجرنا طائرة صغيرة. ولم أشعر بأية غرابة وإنما أحسست كأنني انتقلت من مصر إلى مصر، فإيطاليا بالنسبة لي وطن ثان.. الناس واللغة والأدب والفلسفة.. وأكثر من ثلاثين مرة أتوقف في إيطاليا ذهابًا وإيابًا من أمريكا إلى أوروبا إلى مصر.

والمباراة سوف تجري في مدينة كالياري عاصمة جزيرة سردينيا.. وكانت مملكة يومًا ما.. وأهلها خليط من الإيطاليين واليونانيين والفينيقيين. سألوني: ماذا تريد؟ قلت: هنا لا أحتاج إلى أي أحد أو أي شيء فأنا أعرف طريقي.. إلى المكتبات والمطاعم وإلى المدينة الصغيرة التي اسمها (نورو) التي ولدت فيها الأديبة الإيطالية (جراتسيا دليدا) التي حصلت على جائزة نوبل في الأدب سنة 1928. وهي مثل أستاذنا العقاد وصديقي الأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا لم تكمل تعليمها وتقول عن نفسها: تعلمت الإيطالية والفرنسية في السرير - الإيطالية لأنها تتكلم لغة سردينيا.

وكما حدث، ذهبت إلى روسيا أول مرة توقفت عند كل الناس. فأنا أعرفهم في قصص تولستوي وجوجول وجوركي وبوشكين بملابسهم الغليظة وأحذيتهم الضخمة وما يضعونه على رءوسهم.. وكذلك الناس في سردينيا يركبون الحمار أو البغل أو الحصان.. الرجل ومن ورائه زوجته وابنته.. صورة تاريخية.. وفي إحدى روايات جراتسيا دليدا تقول: إن الناس هنا لا يكرهون قاطع طريق ولا المافيا. إنه يحظى باحترام عظيم. فلم تعد هناك حروب، ولذلك فالناس يفتعلون المعارك والبطولات، فإذا دخلوا السجن فهي مغامرة، وإذا خرجوا من السجن فهي بطولة!

وعندما ذهبت إلى المدرجات لمشاهدة المباراة.. لم يلفت نظري إلا جميلات إيطاليا.. كلهن جميلات. أراهن كذلك.. وعندما انهمك الناس في المشاهدة وتعالت الصرخات هنا وهناك كنت في طريقي إلى مدينة (نورو) وعلى ظهر حصان أشبه بالحمار الذي كان يحتفظ به توفيق الحكيم في حديقة المجلس الأعلى للفنون، وحمار الأديب الإسباني جاثنتو.. هادئ نائم على روحه.. يعرف الطريق.. أي طريق. المهم أنه يمشي هادئًا وأنا كذلك. ومن حين إلى حين أقلب في ورقة لأتأكد من الشارع الذي كانت تسكنه الأديبة العظيمة. تمنيت أن أرى في بيتها صورة إحدى قريباتها التي كانت تعمل سكرتيرة لها.. جميلة جدًّا.. وأحسست أنني كسبت المباراة.. أنا وليس بريطانيا.. فكل واحد له ما يسعده وما يمتعه- كرة القدم لا تهمني.. طلعت، نزلت، استقرت في الشبكة أو في المدرجات.. ولكن عبارة واحدة لأديبة عظيمة تهزني وتستدرجني إلى زيارتها مرة أخرى!

وعاش الفن الجميل !

أول مرة سافرت إلى روسيا كدت أطير من الفرحة، وتلمست حرارة عالية في أذني وفي دماغي. إنها روسيا العظيمة بأدبائها الجبابرة: دستويفسكي وتولستوي وبوشكين، وفلاسفتها يتقدمهم الفيلسوف الوجودي البديع برديائف وشاعرها الحزين لرمنتوف.. وشاعرها الصادق إيفتشنكو.. وهذه الأجواء الضبابية الباردة وأرضها الجليدية وسماؤها البيضاء.. والزلاقات والرءوس التي تغطت بالقبعات من فراء الدببة والثعالب، وموسيقاها الساحرة العبقرية.. فهذه هي روسيا الأدبية الفنية الخالدة. فليس منا من لم يتخيل أنه سوف يلقى دستويفسكي الذي بهرنا وسحرنا بأعماله الرائعة: الإخوة كرامازوف، والجريمة والعقاب، والأبله والمغامر.. وتولستوي برواية الحرب والسلام، وأنا كارنينا، وعقيدتي وماذا يجب أن أفعل، وموت إيفان إليشي.. وبوشكين وتحفته (أونيجن) وموسيقى كورساكوف، وخاتشا دوريان وتشيكوفسكي وبرودين وبروكفيف..

وكانت بداية الرحلة هي موسكو ليلاً. فكل هذا الضباب قد رأيته وتخيلته، وكل هذه الأشباح في الشوارع قد عايشتها قبل ذلك في روايات جوركي وجوجول وشعر أخماتوفا.. وعندما ذهبنا إلى مسرح

البولشوي، كنت قد شهدت الباليه الروسي عشرات المرات في القاهرة وفي ميلانو وفي باريس.. رأيت أولانوفا ودعوتها إلى العشاء في ظلال الأهرام. وتسللت وراحت ترقص على موسيقى حديثة. وبهرت الناس. وتوقفت الحركة في المطعم وتكاثر السياح حولها. وهمس في أذني أحد الروس: إننا نحتاج إلى مليون دولار لكي نجعلها ترقص هذه الرقصة المجانية..

وفي الصباح لم يعجبني الإفطار. ولكن من أجل عيون دستويفسكي وتولستوي أقبل وأرضى بما دون ذلك.. ولما حاول السائق أن يوقظني من هذه الأحلام الساحرة حين قال لي: يجب أن تنتظر ساعة، وتضايقت ولكن الذي تقدمه روسيا لنا لا يمكن تقديره بثمن.. وإيه يعني إفطار رديء أو سيارة مكسرة أو سائق جلف؟!

ولما جاءت المرافقة الروسية تأملتها فوجدت فيها جمال ورشاقة فاتنات المسرح الروسي من راقصات ومغنيات وعازفات.. بل رحت دون أن أدري أطيل النظر إلى أصابعها كأنها هي التي سجلت روائع الأدب والنغم. إن لم تكن فهي شبيهة بها..

من أجل عظماء روسيا وعباقرتها أقبل أي طعام. وأغفر لها كل شيء.. فأخطاؤها مقبولة.. كيف أحاسب من أبدعت هذه الأبهة الفنية والعظمة الأدبية والعبقرية الموسيقية والإعجاز العلمي.. فما أروع روسيا!

لقد هبطت روسيا مبهورًا وغادرتها مسحورًا.. ولم أفق من هذا كله إلا عندما ذهبت إلى موسكو بعد سقوط جورباتشوف وبداية الاضطراب والانهيار الفكري والحيرة والدوخة بين النظريات..

ولحسن الحظ لم يطل كل ذلك. فعادت روسيا إلى يقظتها وبداية عظمتها لتقف قوة جبارة كما كانت.. وتذكرت أغنية أم كلثوم التي تقول فيها: سامحت بيك الزمن.. فالذي قدمته روسيا للبشرية يغفر لها ويلات الشيوعية والإرهاب السياسي والتخريب والتدمير.. وذهبت الشيوعية والشيوعيون، ولكن.. عاش الفن الجميل!

إنها محاولاتنا الأولى!

كان صديقي العالم الأثري كمال الملاخ يتخيل أو يتمنى أنه سوف يؤلف كتبًا كثيرة، فإذا سألته: وماذا تكتب الآن.. أخرج من جيبه ورقة بها عناوين كتب لم يفكر فيها بعد ولكنه سوف يفكر، فعندما أصبحت رئيسًا لمجلس إدارة دار المعارف المصرية.. كان أول المهنئين كمال الملاخ. وبعد السلام والكلام وشرب القهوة، ألقى إلي بورقة استخرجها من جيبه. وفيها عشرون عنوانًا لكتب سوف يؤلفها بعضها وحده وبعضها معًا- نحن الاثنين معًا- ولم يخبرني بذلك من قبل، وإنما هو قرر أن يكتب وقرر أن نكتب معًا. وهذا يكفي؟!

وذهب الأستاذ الملاخ إلى مرحلة متقدمة يطلب مني أن أتفق معه على هذه الكتب، وأدفع جزءًا من مستحقاته عنها - مع أنها لم تكتب. ولكن ما دام قد تخيل. إذن فهي الحقيقة. وما دامت حقيقة فهو يريدني أن أدفع له جزءًا من مستحقاته! وكان وضعي حساسًا جدًا. فهو صديق وهو عزيز جدًّا؛ والكتب التي تقدم بها لم يكتب منها سوى العناوين، فكيف أتفق معه، وكيف أعطيه جانبًا من مستحقاته. وصداقتي بكمال الملاخ قديمة وهو شديد الحساسية سريع الغضب.

وحاولت أن أقنعه بأنني لم أجرب الكتابة مع أحد، ولا أعرف كيف يمكن أن يكون ذلك: فطه حسين عندما أشرف على كتاب ضخم عن المسرح الأمريكي، طلب من كل واحد منا أن يكتب فصلاً.. يكتبه حرًا مستقلاً، وإن كان يجمعها كتاب ويقدمها واحد هو طه حسين. ولكن لم نشترك معًا لا في التأليف ولا في الترجمة.. وكان الأستاذ الملاخ قد استعد لهذه المناقشة بفرض صفحات يكتبها هو.. وصفحات يقترح أن أكتبها أنا. ولم يسأل نفسه: ماذا لو رفضت هذه التجربة الغريبة، والتي لا مبرر لها ما دام كل منًا يستطيع أن يكتب وحده.

ومنذ أيام كنت أقلب في أوراقي القديمة، وجدت فصلاً ترجمته من كتاب «الخلاصة في علم الجمال» للكاتب الفرنسي لالو.. هذا الكتاب ترجمه الصديقان السوريان بديع الكسم وسامي الدروبي.. ووجدت فصلاً آخر ترجمته من دائرة المعارف البريطانية عن فلسفة «الطاهريات».. للفيلسوف الألماني هوسرك.. وهذا الفصل الذي كتبه، خصيصًا لدائرة المعارف البريطانية، يعتبره المؤرخون من أجمل ما كتب ثم فصل أو مشروع فصل لكمال الملاخ عن السيدة أم كلثوم.. وأدهشني ذلك، فهو ليس مشهورًا بتذوقه للغناء، ولأم كلثوم بصفة خاصة.. وعنوان فصل يقارن بين صوت أم كلثوم وصوت أيما سوماك – وكتب في الهامش : تكتبه أنت!

وتساءلت: ولم لا.. أي ولماذا لا تنشر محاولاتنا في الأدب والتاريخ والفلسفة. إنها صورة من طموحاتنا وأحلامنا وأوهامنا.

قال لي أحد الناشرين: إنه مستعد أن ينشر كل هذه المحاولات تحت عنوان: «خطواتهم الأولى ليكون كتابًا»! لا بأس!

هانت عليهم مصائبهم!

كنا نجلس في فندق «والدورف استوريا» الضخم الفخم بمدينة نيويورك، وكأننا لم نعبر البحر أو المحيط إلى العالم الجديد.. وإنما نحن في القاهرة، فقد كان بعض الآباء يتناقشون في مشاكلهم الخاصة، وأهم مشاكلهم أنهم لم يعودوا قادرين على فهم أبنائهم.. وأن المسافة بين الأب والابن أصبحت طويلة عريضة لدرجة أن الابن يعتبر والده من سكان الغابات.. أو يراه هو وأمه من أهل الكهف الذين ناموا في كهفهم 309 سنوات، كما يقول القرآن الكريم.. وعلى ذلك فالأب لا يستطيع أن يفهم ابنه.. وليس بينهم لغة واحدة..

أما الخلاف بين الأب والابن فهو شيء ممكن ومعقول، ولكن الذي يضايق الآباء أن الخلاف كبير جدًا.. بحيث لا يمكن بناء جسور أو لا يمكن أن يكون هناك عبور.. فالمسافة واسعة.. وعلى الآباء إما أن يستسلموا أو يقاوموا الأبناء.. وفي هذه المقاومة تعاسة للجميع.

ولكن الذي يوجع قلب الآباء والأمهات، هو أن الأبناء لا يرون أن أحدًا قد قدَّم لهم شيئًا يستحق عليه الشكر، فالأبناء يرون أن وجودهم لا دخل لهم فيه.. فهم لم يطلبوا من أحد أن يأتي بهم وما دام الأبوان قد أتيا بالأولاد، فهذه مسئولية الوالدين.. وما دام الأبناء قد جاءوا

فلهم حقوق كل المواطنين: أن يأكلوا ويشربوا ويتعلموا وينفقوا ويحبوا ويتزوجوا، وعلى الأب أن يقبل هذا الوضع أو لا يقبله.. وغالبًا يقبله ويباركه.. فالأبناء لا يشعرون بالامتنان لما فعله الأب أو الأم.. لأن هذا واجبهم، وأن أحدًا لم يرغمهم على ذلك.

وتحسر الآباء على الذي أصابهم، وظنوا أن هذا العقوق خاص بالأبناء في الشرق.. ولابد أن الغرب قد اهتدى أبناؤه إلى شيء أفضل.. وأن الآباء في أوروبا وأمريكا أحسن حالاً من الآباء في البلاد التي نزلت فيها الكتب السماوية التي تقول: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.. ﴿فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾.. صدق الله العظيم.

وظهر رجل أمريكي يضرب كفًا بكف ويقول: أنا احترت في هذا الولد.. واتجهنا إليه نسمع القصة، لقد طلب إلى ابنه ألا يذهب إلى ملعب الكرة وأن يذاكر، وإذا بالولد يركب سيارة والده من دون إذن وليست معه رخصة.. ولما ناقشه الأب كان ردّ الابن: كيف لا يذهب وفريق الجامعة هو الذي يلعب. وكيف يذهب على قدميه.. ثم إنه لم يجد أباه حتى يستأذن منه..

ولما لم يقتنع الأب بوجهة نظر الابن.. نهض الولد واقفًا وهو يقول: اسمع يا أبي، لا تنس أن هذه بلاد حرة.. ونحن على قدم المساواة في تصرفاتنا. وليس من الضروري أن أقنعك!

وسأله الآباء المصريون : هه.. وماذا فعلت مع هذا الولد العاقّ؟

فقال الرجل: اشتريت له سيارة جديدة.

وسكت الآباء المصريون، فقد هانت عليهم بلوتهم!

كلما تذكرت توفيق الحكيم!

تضايق أستاذنا توفيق الحكيم عندما نشرت في مجلة (الجيل) التي كنت أرأس تحريرها صورة لوالدته وهي تبيع مخلفات الطيور التي تكوَمت أمامها على شكل تل صغير. وفي اليوم التالي أصدر الرئيس عبد الناصر قرارًا بتأميم الصحافة. فوجد توفيق الحكيم في هذا القرار عقابًا أستحقه أنا وغيري!

وكان سعيدًا عندما أصدر الرئيس عبد الناصر قرارًا بفصلي من الصحافة والتدريس في الجامعة بسبب ما كتبته عن مسرحية توفيق الحكيم (السلطان الحائر) والإسقاطات المتعمدة على حكم الرئيس وظلم الرئيس!

وضايقته عندما كان يحدثني عن ابنه الفنان إسماعيل الحكيم، فقد أعطاه مبلغًا من المال وطالبه بسداده كل شهر، وقال لي إسماعيل إنه سعيد ووالده أيضًا. ولو نظر أبوه إلى رزمة الفلوس التي يتقاضاها كل شهر.. لوجد أنها رزمة واحدة تنتقل من يد الوالد إلى يد الوالدة إلى يد إسماعيل.. رزمة واحدة تدور بينهم جميعًا ومن ثلاث سنوات! لقد ضحكنا عليه!

وتضايق توفيق الحكيم عندما نشرت في مجلة (الجيل) أيضًا أن سكان عمارته التي في ميدان العتبة الخضراء لا يعرفون من هو

توفيق الحكيم؛ أحد السكان قال لي: إنه دكتور؟ وواحد قال: ممثل معروف.. وواحد قال: صاحب عمارة لا يهتم بنظافة عمارته. ولم نجد ساكنًا واحدًا يعرف من هو توفيق الحكيم وعندما ذهبت مع طه حسين إلى الأوبرا لمشاهدة مسرحية (يا طالع الشجرة) وصفها طه حسين بأنها عبث وكلام فارغ! قال إن هناك أدباء وشعراء فرنسيين عبثيين أيضًا. ولكن أخف دمًا من توفيق الحكيم من مثل: لوتر يومون، وفرلين، وبودلير!

وكأنني أردت أن أصالح توفيق الحكيم فنشرت على لسانه الهجوم على الجماهير التي تهتم باللعب وكرة القدم أكثر من اهتمامها بالأدب والثقافة والفن. وقال عبارته المشهورة: انتهى عصر القلم وبدأ عصر القدم!

لقد قرأ الحكيم أن لاعبًا دون العشرين يعطونه مليونين من الجنيهات وثلاثة.. فقال: إن هذا اللاعب الصغير أخذ في سنة واحدة ما لم يأخذه كل أدباء مصر من أيام أخناتون. ولم يعش توفيق الحكيم ليسمع عن (دافيد بيكهام) الذي يتقاضى مئات الملايين بحذائه أيضًا. وساءلت نفسي ولماذا كل هذا عن توفيق الحكيم. لا بد أنني أشعر بالضيق مما حدث لي بسبب توفيق الحكيم. وعاتبت نفسي كثيرًا، كيف أتخذ هذا الموقف الصبياني من أستاذ جليل. إذن لقد كانت عاطفتي أقوى من عقلي.. وما دام عصر القلم قد ولى وجاء عصر القدم، فقد كومت هذه الحوادث الصغيرة وجعلتها في شكل كرة القدم، وسدَّدتها إلى شباك الغضب والسخط، وأطلقت صفارة النهاية لمباراة سخيفة كنت فيها اللاعب والمتفرج والكرة والحكم!

.. لا سامحهم الله !

كانت زوجة الزعيم الكوري الشمالي كيم إل سونج قد دعت السيدة سوزان مبارك إلى زيارة المكتبة العامة. ووقفت وراءهما. وفوجئت بالسيدة سوزان تطلب من أمينة المكتبة أن تبحث على الكومبيوتر إن كانت في المكتبة كتب لأنيس منصور.

وأصابني دوار.. فقد خشيت ألا تجد كتبًا لي في المكتبة، ورغم أنه ممكن جدًا ألا تكون كتبي قد وصلت إلى كوريا، فما أبعدنا عنها، وأبعدها عنا.. ولكن فجأة ظهر اسمي على الشاشة وعدد من كتبي. وشعرت بالراحة، والتفتت السيدة سوزان تقول: طبيعي أن تصل كتبك إلى هنا!

وفي يوم أرسل لي رجل الأعمال رائد هاشم قائمة بأربعين كتابًا من كتبي، بعث بها ابنه الذي يدرس في أمريكا، والذي أدهشني أنه يعمل في مدينة صغيرة، فكيف وصلت هذه الكتب وغيرها إلى هذه القرية الصناعية!

وفي يوم زرت صديقي الأديب الإيطالي الكبير ألبرتو مورافيا، وأضحكته وضايقت زوجته الثانية، عندما قدمت له كشفًا مطبوعًا بعدد من كتبي في مكتبة مدينة تارانتو في أقصى الجنوب الإيطالي، وورقة تقول: ليس لزوجته الأديبة (داتشا ماريانى) كتاب واحد!

ولم تكن كتبي مترجمة إلى الإيطالية وإنما بلغتها العربية. وأدهشني، وسألت إن كان في هذه المنطقة الجنوبية النامية أحد يتكلم العربية. فقالوا: قليلون.. ووجدت عندهم كتبًا بالصينية. وسألت إن كان أحد يتكلم الصينية فقالوا: لا.. ولكن ربما جاء أحد!

وكان لي شاعر صديق سجين في مدينة (يورتوفينو)، أرسلت له عددًا من كتبي وكتبت إهداء له بالعربية والإيطالية. وأدهشني إصراره فقال: من يدري ربما زارني أحد يعرف العربية فأطلب إليه أن يترجم صفحات من كتبك.. وفوجئت بهذه الكتب تباع في سوق الكتب القديمة في روما. وقد ألصقت عليها ورقة تقول إن لها سعرًا خاصًا، لأن المؤلف كتب الإهداء عليها للشاعر أرنولدو سباتيني الذي كان سجينًا ومات!

وأدهشني جدًا أن نسخة من كتابي «في صالون العقاد كانت لنا أيام» في بيت الملك السابق أحمد فؤاد.. ودهشتي سببها أنه لا يستطيع أن يقرأها، وأنني عندما زرته كانت الزيارة مفاجئة فهو لم يضع هذا الكتاب بمناسبة الزيارة، وليس مضطرًا إلى ذلك.. وتناولنا غداءنا وعشاءنا في باريس. وقابلته في الدار البيضاء، وتعشينا في بيت وزير الثقافة، ثم قابلته في مصر مرتين. وفاتني أن أسأله من أين جاءه هذا الكتاب، ولماذا؟

وهذا كله يدل على نشاط الناشرين للكتب، وفي نفس الوقت يدل على أنني لم أتقاض مليمًا عن كل الكتب التي تباع خارج مصر من كوريا شرقًا إلى تارانتو جنوبًا.. وإنما الناشرون – لا سامحهم الله – هم الذين يكسبون ويتظاهرون بالفقر من أجل نشر الثقافة لوجه الله!

.. ولا زلت أبكي!

كانت إحدى ليالي الشتاء الباردة، وكل الشتاء عندي بارد جدًّا. وتأكدت أن كل ما أحتاج إليه موجود.. سندوتش جبنة وزجاجة ماء وتفاحة وبعض الشاي الساخن، أما وجهتي فهي مرصد القطامية المصري. الغرض من الزيارة هو أن ثلاثة كواكب سوف تتعامد وسوف يبقى التعامد حوالي ساعة ونصف الساعة. ولن يتكرر هذا الحادث الفلكي إلا بعد 97 عامًا. إذن هذه فرصة عظيمة.

سألت أهل الذكر عن درجة الحرارة في داخل المرصد، فقالوا: بالنسبة لك باردة جدًّا. وسألت فقالوا لا بد أن ترتدي ملابس ثقيلة وأن تشرب الكثير من الشاي حتى لا تنام عند منتصف الليل فالتعامد سوف يتم عند منتصف الساعة الثانية صباحًا.

اتصلت بصديق لي في البحرين. وأكد لي المعلومات ونصحني أن أذهب قبل الموعد بنصف ساعة لكي أرى الكواكب الثلاثة وهي تقترب بعضها من بعض وتتخذ ألوانًا مختلفة مما يؤكد نظرية أينشتاين. أما هذه الإضافة الأخيرة فأكذب لو قلت إنني فهمتها. أما صديقي في البحرين فيعرف ذلك يقينًا؛ فقد درس في بريطانيا وأمريكا وله أبحاث.

سألت زميلاً فلكيًا فقال لي : إنه أتى بملابس ثقيلة. وهو ينصح بأن أمسك منظارًا مقربًا وأقف خارج المرصد. وقال إن جمال المنظر أن تراه مرتين.

وعرفت من أقارب لي في كندا أنهم أيضًا يرصدون هذه الظاهرة، وأنهم سوف يبعثون بالصور التي يلتقطونها.

وفوجئ مدير المرصد بشيء غريب. لقد أدخلوا سريرًا صغيرًا. ووضعوه في أحد الأركان، وعلى السرير لحاف ثقيل. وأشاروا فقفزت إلى السرير وتغطيت بعد منتصف الليل وهذا موعد نومي. ولكن هذه الليلة لا نوم، أعرف ذلك تمامًا. ووعدت بأنني سوف أكتب مقالاً في صحيفة يومية ومقالا في مجلة أسبوعية ومحاضرة في مجلة علمية. وأخرجت (الترموس) وصببت شايًا ثقيلاً مرًا في أحد الأكواب حتى لا أنام فأنا أنتظر هذا اليوم من شهرين. وقد أجلت كل ما يشغلني من أجل هذه الظاهرة.. سألني العالم المصري فاروق الباز، قلت: أنا جاهز تمامًا. العدسات والكاميرات.. والتلسكوب.. كنت قد وعدت الرئيس السادات بأن أروي له كل ما رأيت.. واقترح أن تكون هذه المحاضرة في اجتماع عائلي. وأسعدني ذلك.

فهل هذه الدموع التي في عيني.. دموع ماذا؟ من المؤكد أنها دموع حقيقية فقد توهمت أنني سوف أسترخي في السرير دقائق. ولكن تركوني وانصرفوا جميعًا إلى مشاهدة الكواكب الثلاثة ولم أقفز من السرير إلا على صوت الصراخ والمناقشات والمكالمات التليفونية. لقد نمت ولم أعاتب أحدًا. فهذا يوم مثل يوم القيامة تضع فيه كل ذات

حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى.. والله بكيت كأنني طفل. ولم أستطع أن أكتب مقالا أو أقول لأحد إنني نمت في مواجهة هذا الحدث الفلكي الفريد..

حتى الآن وأنا أكتب هذه الكلمات سقطت دمعة على الورق فطبعت بقعة تشبه الكواكب، وهي تتداخل على مدى ملايين الكيلومترات!

أنواع من التمرد الأدبي!

على مائدة عمر الشريف وفاتن حمامة، اقترح الصحافي اللبناني الكبير سعيد فريحة عمل فيلم عن إيليا أبو ماضي، ويقوم بالدور عمر الشريف. ثم أخرج من حقيبته كتابًا بالإنجليزية عن حياة المفكر اللبناني، وأعطاني الكتاب: وطلب مني أن أستخرج من هذا الكتاب وكتب أخرى قصة حياة أبو ماضي، وأن أكون على صلة بعمر الشريف لعله يحتاج إلى مواقف أو أحداث. وبعد الغداء تفرقنا..

وقرأت الكتاب، ولكن كتبت قصة أخرى لا علاقة لها بعمر الشريف ولا فاتن ولا أبو ماضي، قصة استعراضية غنائية راقصة. وجعلت اسمها «القلب لا يمتلئ بالذهب».. وبدلا من إهدائها إلى فاتن حمامة أهديتها لفرقة رضا للفنون الشعبية!

وفوجئت بالمطرب عبد اللطيف التلباني يختارها ليقوم ببطولتها. ولا علاقة له بالأحداث.. وإنما أعجبته والسلام، ولم يسألني سعيد فريحة ولا عمر الشريف ولا فاتن حمامة. ولا وجدتني في حاجة إلى أن أشرح ماذا حدث! فأنا حر كتبت ما جال بخاطري بمناسبة قراءاتي عن إيليا أبو ماضي!

ومرة أخرى، فقد سمعت مجموعة من الحكايات والمصائب للشبان المصريين المهاجرين إلى أوروبا من مصر ومن العراق.. وكيف أنهم يتعذبون ولا أحد يحميهم. وسمعت وتأثرت وكتبت مسلسلاً تلفزيونيًا اسمه «من الذي لا يحب فاطمة».. وكان مسلسلاً ناجحًا أذيع أكثر من 15 مرة في مصر وخارجها. ولا علاقة لهذا المسلسل بما قرأت، وإنما اخترت جانبًا من كل شيء وخلطت الرومانسية بالدين بالوطنية بالبطالة. وكان المسلسل بطولة شيرين سيف النصر وآخرين.. ومرة ثالثة طلب مني الرئيس السادات أن أجلس مع يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ونكتب معًا عملاً وطنيًا. وجلسنا طويلاً وتناقشنا.. وعاد كل منا إلى بيته يكتب شيئًا آخر. ونشرت قصة بعنوان «يعود الماضي يعود».. وكتب يوسف السباعي، مشروع رواية، وإحسان عبد القدوس كتب ثلاث قصص قصيرة. وتبادلنا هذه الأعمال الأدبية، وقرأناها في جلسة واحدة. وضحكنا فقد سمعنا اقتراحات واحدة.. ولكن عندما أوى كل منا إلى بيته كتب شيئًا مختلفًا. إننا رفضنا الضبط.. ورفضنا العمل الواحد والأثر الواحد.. ولم يكن هذا إلا ممارسة للحرية والتمرد معًا!

إذا نطقت الأحجار فصدقوها !

كل شيء في عالمنا نسبي، لا توجد حقيقة مؤكدة ولا توجد بديهية واحدة بما في ذلك أن 2+2=4، فهناك نظرية ترى أن هذه معادلة تقريبية، فلا يوجد واحد يساوي واحدًا تمامًا، وعلى ذلك فواحد + واحد= اثنين تقريبًا، وهناك آراء أخرى أكثر تعقيدًا. وفي عالم الحيوانات وتطورها من حالة إلى حالة أكبر دليل على أن حيوانات البر قد انتقلت إلى البحر، وحيوانات البحر قد ارتدت إلى البر، وحيوانات البر والبحر قد تحولت إلى عصافير، والديناصورات تحولت إلى طيور، كيف؟

الحفريات تقول لنا ذلك، حفريات الصين أخيرًا تقول لنا: إن الحيتان مثلاً كانت على البر ثم انتقلت إلى البحر، وإن الزواحف طارت، وإن الطيور عادت تزحف، لماذا؟ الجواب عند العالم العظيم داروين، فكل مرحلة يمر بها الحيوان يجب أن تتوافق مع البيئة التي عاشها وتوافق معها ثم قاومها فقاومته وتحول إلى شكل آخر.

فكيف لا نصدق الأحجار إذا قالت؟!

مثلاً: إذا نظرنا إلى القرد الليمور، وكان القدماء يعتبرونه خفاشًا، والحقيقة أنه قرد، ولكن كيف طار هذا القرد من شجرة إلى شجرة، إن

أغشيته طالت واستطالت من رأسه حتى أطرافه، وظلت تتسع وتقوى حتى جعلته يطير، ومن الطيران بين الأشجار ملايين السنين أصبحت حركته أقوى وأيسر، فماذا حدث؟ الذي حدث أنه عاش في ظروف حتمت عليه أن يطير من أعالي الأشجار هربًا من القردة الأخرى ومن الأفاعي ومن الطيور الجارحة، فكان لا بد أن يهرب بجلده العريض المتين.

وهناك نظريات تعارض دارون، وهي أيضًا مقنعة، إذن ماذا؟ إذن هي تفسيرات تساعدنا على أن ننتقل من تفسير إلى تفسير، والطريق أمامنا طويل وعريض، وكلما اختفت علامة تعجب ظهرت مكانها علامة استفهام ثم نقطة في نهاية السطر، دليلاً على أننا وجدنا تفسيرًا قد قبلناه إلى أن يظهر تفسير جديد يقنعنا، فنحن نحاول ولا نعرف ما النهاية.

فهذه النظريات هي وسائل مواصلات إلى عوالم أخرى، وفي هذه العوالم الجديدة سوف نجد وسائل مواصلات أخرى، وهكذا. والحقيقة الثابتة هي: لا حقيقة ثابتة وإنما الباب والشباك مفتوحان لهواء جديد، بالفعل هو الباب والشباك والسماوات المفتوحة، وهذه هي المتعة المؤكدة في مغامرات العقل في عوالم مجهولة نريدها أن تكون معروفة يومًا بعد سنة بعد قرن!

من الذي لا يحترم كاريوكا وزينات؟

لماذا هذه النظرة إلى الراقصات؟ لأنهن يتعرَّين ويتثنين ويتكسرن. صورة جنسية لها ذراعان وساقان ونهدان وردفان، ولأنها تكشف ما كان من الواجب تغطيته. ولما حاولت الراقصة سامية جمال أن تدخل تعديلا على الرقص الشرقي لم تعجبنا؛ فقد كانت ترقص وتجري كالمهرة من أول صالة الكباريه لآخره. وليس هذا هو الرقص الشرقي الذي نعرفه. ولما رأيت في زيورخ العام الماضي فرقة باليه، الفتى الأول إنجليزي والفتاة يابانية، ثم إن هذه الفتاة تتعرى! وتعانق الفتى الأول وتقبله! وتظهر الابتسامة على وجهها! وكل ذلك تعديل وتبديل وتشويه للرقص التقليدي؛ فلم يعجبني.

ولكن عرفت من الراقصات من أحببت وأعجبت: راقصات الباليه الروسي ابتداء من تمارا تومانوف.. وأوليانوف.. وراتنشكايا.. فقد كان مديرو الأوبرا ووكلاؤهما أصدقائي. وكانت لقاءات حول الهرم وفي ليالي الفيشاوي وفي عشاء خاص.. وكان كلام وسلام وموعد ولقاء في القاهرة وفي موسكو وفي باريس، وحكايات! ولكن عرفت من الراقصات المصريات تحية كاريوكا وزينات علوي. وكاريوكا شخصية إنسانية شجاعة. فقد كانت تساعد الفنانين والفقراء

والمرضى. أذكر أنني رافقتها إلى قصر العيني حيث أجريت عملية لفنانة متواضعة مريضة. ولم تذهب كاريوكا إلى الكباريه حيث ترقص في تلك الليلة فقد تملكها البكاء؛ ولم تعد قادرة على أن تمثل الفرفشة!

وكان الشيوعيون قد ضحكوا عليها كما فعلوا بسعاد حسني. وكلتاهما لا تعرفان القراءة والكتابة إلا في سن متأخرة. وكانت كاريوكا تتحدث عن جوركي ودستويفسكي، وتقارن وتفاضل بين أعمالهما كذا وكذا ولا تحب وتضايقت منها. وأقنعتها أن تحترم نفسها وتسكت!

أما زينات علوي فهي أحسن راقصة مصرية بعد كاريوكا؛ لأن أداءها سهل وجميل ولا تتبذل في حركاتها. الأهم من كل ذلك موقفها النبيل من عدد من الصحافيين والكتاب الذين فصلهم الرئيس عبد الناصر – أنا مثلا. ورأيتها تزور الشاعر كامل الشناوي، فلما وجدته نائمًا ظلت جالسة حتى نهض من فراشه. وكان يسهر الليل وينام النهار، وهددت بأن تلقي بنفسها من النافذة إن لم يأخذ هذا المبلغ من المال، وكان بضعة آلاف. واعتذر كامل الشناوي وفوجئنا بأنها فعلا تريد أن ترمي نفسها من الشباك. ثم قبلتنا والدموع في عينيها.

وبعد وفاتها، الله يرحمها، جاءتني إحدى قريباتها ومعها خطاب، وفي الخطاب فلوس مساعدة منها لفنانة «غلبانة» لا يعرفها أحد. فكيف لا نحترم هذا الطراز من الفنانات؟!

هو أوجع عقولنا وأنت أوجعت قلوبنا!

كان الأستاذ العقاد كثير الكلام عن صديقه الشاعر عبد الرحمن شكري، فكان زميله في (مدرسة الديوان)، وكان يروي نوادر عن مدى اعتزازه بنفسه، وحساسيته الشديدة للنقد، فكلمة واحدة تجعله يعتزل الناس سنوات، وينسى الناس، ولكنه كالجمل والفيل وحماتك لا ينسى!

ولم نعد نسمع عن عبد الرحمن شكري، فقد انصرفنا إلى دراساتنا وإلى مستقبل حياتنا. وفي الصالون الأدبي للعقاد كنا نريد مزيدًا من الأخبار عن عبد الرحمن شكري، وكان العقاد يقول وبمنتهى الحماس والحيوية، يحكي لنا ما سبق أن قاله عشرات المرات.

وكنا نستدرج العقاد إلى أن يردد شعرًا لعبد الرحمن شكري وكان يفعل، وكنا نحن أيضًا لا نخفي عدم مشاركته الإعجاب به.

وفي إحدى المرات أبدى الأستاذ أسفه لاختفاء عبد الرحمن شكري. وقيل في بورسعيد وقيل في الإسماعيلية، وأكد أقارب الأستاذ العقاد أنه في أسوان، وهمسوا بأن الأستاذ العقاد يزوره سرًا احترامًا لرغبة عبد الرحمن شكري. وسألنا العقاد فأنكر، إذن لا نعرف أين هو، وإن كان حيًا أو أنه قد مات، وهو الذي اختار هذه النهاية.

وجاءت المعلومات بأن عبد الرحمن شكري موجود في الإسكندرية، وذهبت إليه، وقال لي: أريد أن أكمل حياتي في هذه العزلة فأنا قررت أن أموت، دعني لكي أموت، فلم أكن سعيدًا بهذه الحياة فاترك لي – أرجوك– مساحة من العزلة والوحدة والهدوء لكي أكون جديرًا بالموت.

وقام بقفل باب غرفة قذرة مليئة بما لا أعرف من الحاجات، ولما نهض ظهرت بقع على البنطلون وفتحات في القميص، أما الوجه فشاحب، وأما الظهر فقد انكسر، وأما النظارة فغليظة، وخطوته ارتجفت ونظرته ارتعدت، إنه القليل الذي تبقى من الشاعر الكبير. وطلبت الأستاذ العقاد، ونقلت له أن عبد الرحمن شكري ما زال حيًا، ومن أيام توفي عبد الرحمن شكري فأخبرت الأستاذ العقاد وتوقف الأستاذ عن الكلام حتى خيل لى أنه قد أغلق الهاتف، ولكن سمعت بكاء ونشيجًا، ولما اعتذرت للأستاذ العقاد ارتجل أبياتًا من الشعر في رثاء عبد الرحمن شكري.

لقد عاش عبد الرحمن شكري سرًا، ولما كتبت عنه مات علنًا، وعاتبني الأستاذ العقاد قائلاً: والله يا مولانا، كنا قد أوجعنا عقولنا عليه، فجئت أنت أوجعت قلوبنا!

إلى كانوسا: بالذوق أو بالقوة!

في السياسة وفي الحب: الخط المستقيم ليس الأقصر ولا الأقرب، ففي السياسة الخط ينحني وينكسر، إنها مصالح ومنافع، والمثل يقول: في السياسة لا صداقة دائمة ولا عداوة دائمة، وإنما مصالح دائمة، ومن أجل هذه المصالح يلتوي وينحني وينكسر ويذوب الحديد، إنها شروط لعبة السياسة.

والقدماء قالوا: لا تكن جافًا فتكسر ولا لينًا فتعصر، وإنما بين بين، وهذه عملية صعبة، ولكن من اختار السياسة أسلوب حياة، فقد اعتاد على لعب التوازنات، ومعاوية هو صاحب الشعرة المشهورة، التي لو كانت بينه وبين الناس ما انقطعت. قال: إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها. وقال فيلسوف السفالة السياسية ميكيافيللي: إن الغاية إلى شيء تبرر كل الوسائل إليه، الحلال والحرام والخيانة والغدر، من أجل أن يصل إلى الهدف الذي يريد. وأم كلثوم تغني وتقول: أبوس القدم وأبدي الندم على غلطتي في حق الغنم. وكلمة (لا) ليست من السياسة، وكذلك كلمة (نعم)، وإنما كلمات أخرى مثل «ربما، لعل، يجوز، ولم لا، وتقول (لا) وأنت تقصد (نعم)، وتقول (نعم) وتقصد (لا). وفي العصور الوسطى عبارة شهيرة: الذهاب إلى كانوسا،

لا بد من الذهاب إليها، ولها قصة، فبابا الفاتيكان جريجوري السابع كان من حقه أن يرسم القساوسة، ولكن الإمبراطور الألماني هينريش الرابع انتزع منه هذا الحق، فأصدر البابا قرارًا بطرده من الكنيسة، أي شلحه من الكنيسة، وكان رد الإمبراطور شلح البابا أيضًا.

ولكن الإمبراطور كان رجلاً سياسيًّا، فقرر أن يزور البابا، وأن يعتذر له قبل أن يرى قرار الشلح، وخاف البابا من أن يكون الإمبراطور قد أعد له جيشًا لطرده، فذهب إلى قلعة في قرية «كانوسا» في حماية الكونتيسة ماتيلدا، وذهب الإمبراطور حافي القدمين عاري الرأس، وقد ارتدى هو والحاشية مسوح الرهبان، ولم يسمح له البابا بدخول القلعة، فظل في البرد والجليد ثلاثة أيام حتى انفتح باب القلعة يوم 29 يناير سنة 1077، وركع الإمبراطور وبكى وتوسل إلى البابا أن يعفو عنه، فعفا، وطلب البابا من الإمبراطور أن يبقيه على عرش الكنيسة، فأبقاه! وعاد البابا فأصدر قرار شلح الإمبراطور، ولما دخلت قوات الإمبراطور روما طرده، وعين بابا آخر للكنيسة!

والرحلة إلى كانوسا هي رحلة الندم وطلب العفو. فليس سياسيًّا ولا عاشقًا من لم يذهب إلى كانوسا، أو لم يطلب الإقامة فيها.

والمستشار الألماني بسمارك قد أعاد هذه العبارة في البرلمان، عندما استحكم الخلاف بين ألمانيا والكنيسة، فقال في سنة 1872 : لن نذهب إلى كانوسا!

ولكن أحفاده ذهبوا وأقاموا، فلا بد من كانوسا وإن طال السفر في سياسة الحب وحب السياسة!

كالكلاب يقبلون أقدام الغرباء!

صديقي الدكتور أنور عبد السلام الشبراوي يتفرغ لكتابة دراسة نقدية لشعر الشاعر العراقي الكبير مهدي الجواهري، وسألني فقلت: كل ما أذكره أننا تشاجرنا في قاعة الخلد في بغداد. وأرى أن السبب لهذه الخناقة لم يكن قويًا، ولا كان يحتاج أن أكون عصبيًا وأن يكون هو أيضًا. سب نزار قباني وعلي أحمد باكثير.. وقلت: عيب يا أستاذ، مثلك يشتم، ومثلك تفلت منه أعصابه، عيب!

وما جاء بعد ذلك على لسانه أو على لساني لا يليق بأحد منا. والذين توقفوا بعيدًا ظنوا أن الجواهري يلقي قصيدة. وقد كان مداحًا. لا بأس. فكل الشعراء والفنانين الكبار أيضًا كذلك. فما من رسام كبير في أية عاصمة لم يرسم صور الزعماء وكلابهم وقططهم أو البابا والكرادلة. مثلاً قال عن نزار قباني: إن كل المعاني التي يباهي بها قد جاءت في شعري قبل ذلك، فليس مبدعًا! وإنما النسوان قد رفعته إلى فوق وتركته هناك، وأنا سوف أجعله يهبط من السماء إلى الأرض. هذا وعد وعهد!

أما رأيه في الشاعر الحضرمي (علي أحمد باكثير) فمنتهى الظلم. وهذا الأديب الحضرمي لم ينل ما يستحقه من الإعجاب والشهرة في

بلاده وبلادنا.. فهو أول من كتب الشعر الحرّ.. وهو أروع ما يكون في مسرحياته السياسية. وعلى الرغم من أن باكثير يضحك بصعوبة.. لكن من الصعب أن تقاوم الضحك والسخرية في مسرحياته. وعندما ظهرت مسرحية (جلفدان هانم) بطولة محمد عوض، كنت أنا رئيس لجنة التحكيم.. ولما دعوت باكثير ليتفرج على مسرحيته اعتذر وقال: إنه سوف يشاهدها وسط الجمهور بدون أن يدري به أحد، ليسمع ماذا يقول الناس عن المسرحية والمؤلف والممثلين. قال لي الفنان حمدي غيث: إنه لمح واحدة في الصالة تشبه باكثير تمامًا، ربما أخته أو والدته.. ولما لم تكن له أخت ولا والدة في مصر فهو إذن قد ذهب متنكرًا.

وتشاجرت مع الجواهري، أما نزار قباني فاختلفنا وقاطعته؛ لأنه شتم مصر شعبًا وجيشًا. وحاول الموسيقار عبد الوهاب أن يصلح ما بيننا، فلم يفلح. وقلت: بل يعتذر للشعب المصري. ولكن المصريين ينسون وسرعان ما أقاموا له الحفلات والندوات وهنا تذكرت عبارة للشاعر الألماني يهاجم فيها الألمان: أنتم كالكلاب تلعقون أقدام الغرباء!

مجانين ويسعدنا ذلك!

قال لي: أنت مجنون؟

قلت: نعم! ومن هو العاقل؟! لا يوجد أحد عاقل، فليس من العقل أن تعمل طول الوقت ولا أن تنام طول الوقت، ولا أن تأكل كثيرًا وتشرب أكثر، ولا أن تتعاطى كل هذه العقاقير التي يفسد بعضها بعضًا، ولا من العقل أن تضيع عمرك كله على أولادك الذين لن يكون لديهم أي امتنان لك، ولا أن تحب كل هذا الحب، ولا أن تكره كل هذه الكراهية، فليس بيننا عاقل، بل كلنا على درجات مختلفة من الجنون.

أما سبب هذا الاتهام بالجنون فلأنني حصلت على إذن من الحكومة الأميركية بأن أشاهد ظاهرة فلكية في نهاية هذا العام عن طريق المرصد الجبار في إحدى جزر هاواي، فالرحلة ذهابًا وإيابًا أكثر من أربعين ساعة، أما الظاهرة فسوف تستغرق ساعة و 17 دقيقة، وهي ظاهرة نادرة، وقد لا تحدث مرة أخرى في هذا القرن، وإنما في القرن الثالث والعشرين، ولن أكون وحدي، وإنما سوف نكون ستة من المجانين، اتفقنا ونجحنا في الحصول على الموافقة.

ولحسن حظنا سوف يكون في ذلك اليوم عدد من علماء الفلك الإنجليز والأميركان، وبعد هذه المشاهدة وتسجيلها سوف نستمع إلى ندوة يشترك فيها علماء آخرون عبر الإنترنت، ولابد أن يصدروا دراسات علمية دقيقة بعد ذلك.

أما هذا الذي سوف نراه فهو تخليق نجوم جديدة، أو ميلاد نجوم جديدة في إحدى المجرات، والذي سوف نراه لم يحدث في ذلك اليوم، وإنما حدث قبل ذلك بأكثر من ثلاثة ملايين سنة ضوئية، أي إن الضوء الذي بلغ مرصد هاواي احتاج إلى أكثر من ثلاثة ملايين سنة لكي يصل إلينا، وأول من تنبه إلى ذلك هو المرصد المداري الشهير «هابل»، وقد كانت الصور شديدة الوضوح، ثم إنه حدد أن هذه الظاهرة سوف تبلغ أوج وضوحها الباهر في يوم 23 ديسمبر القادم الساعة الحادية عشرة مساء، وقد تلقينا الخرائط وبعض الكاسيتات التي تساعد على الرؤية والفهم، ولكن يحزنني أنني غير قادر على استخدام التلسكوبات التي عندي، والسبب هو أن السماء ليست صافية والجو ملبد بالدخان والرطوبة ثم أضواء البيوت المجاورة، كلها تفسد الرؤية، ولذلك لابد أن نسافر ولو مرة واحدة إلى البرازيل، وأرجو أن نتمكن من ذلك، وفي استطاعتك أن تقول: إننا مجانين!

نعم نحن كذلك ويسعدنا ما سوف نرى!

عصا سحرية اسمها: لو!

صدر أخيرًا كتاب عن عشيقة هتلر إيفا براون التي صارت زوجته قبل انتحارها بساعات، ولا أعرف إن كان الكلام عن زوجة هتلر هو آخر كلام، فقد صدرت ألوف الكتب عن هتلر وأمه وأبيه وأخته وبنت خالته التي قتلها ولم يترك المؤرخون عيبًا جسميًا ولا نفسيًا أو خلقيًا لم يتعرضوا له، ولا أدري كيف صورته عند الشعب الألماني، ولا ما نهاية تحقير وازدراء الألمان وتاريخهم وزعمائهم.

وفي هذا الكتاب لعبة تاريخية شهيرة، وهي ماذا كان يحدث لو أن إيفا براون لم تقصر فستانها في ذلك الوقت، ماذا كان يحدث لو أنها لم تصعد سلمًا خشبيًا فيرى هتلر ساقيها، ماذا كان يحدث لو أن هتلر عندما رأى ساقيها كان يجلس أحد المصورين الذي شجعه على أن يذهب في الإعجاب بها إلى أكثر من ذلك؟

ولكن لماذا قصرت فستانها في ذلك اليوم؟ السبب بسيط، لقد تعلق فستانها بمسمار فخرج منه بعض النسيج فكان لابد من إخفاء هذا العيب، فأتت إيفا براون بالمقص وقطعت سنتيمترات من الفستان كشفت عن ساقيها البضتين الشقراوين.

أما هذه اللعبة التاريخية فتقوم على ماذا كان يحدث (لو) أن هذا لم يحدث، مثلاً: ماذا كان يحدث في مصر لو أن أحدًا لم ينتشل محمد علي من الغرق في ميناء الإسكندرية؟ ماذا كان يحدث لو وقع نابليون أسيرًا في يدي الأميرال نلسن؟ ماذا كان يحدث لو اغتيل عبد الناصر في الإسكندرية سنة 1954؟ وماذا كان يحدث إذا لم يغتالوا أنور السادات سنة 1981؟

الفيلسوف الفرنسي باسكال هو الذي قال: إن أنف كليوبترا قد غير التاريخ، وهو لا يقصد أنفها بالذات، وإنما عيناها أو شفتاها من الممكن أن تغير التاريخ، وقد حدث فوقع في غرامها أبطال الرومان، ماذا يحدث لو كانت الأفعى التي خرجت والتفت حول عنقها لم تكن سامة؟

ولكن هذا ما حدث، فرائد الفضاء جاجارين دار حول الأرض ونزل سالمًا وكان انتصارًا آخر لعلماء روسيا، ولكن بعد ذلك مات في حادث طائرة، فماذا كان يحدث لو فشل الروس في استعادته سالمًا إلى الأرض؟

والإسراف في استخدام (لو) لعبة مسلية، ولكن التاريخ له ألاعيب أخرى.

إنها كالجريمة لا تفيد!

أقسم المؤرخ الكبير د. حسين مؤنس أنه وجد أستاذنا د. عبد الرحمن بدوي جالسًا على مقهى ديماجو في باريس وقد نشر أمامه صحيفة (الموند) مستغرقًا في قراءتها، ولما نظر إلى الصحيفة وجدها ميزانية شركة إير فرانس. ولما أطال النظر وجد أنه قد وضع علامات على الهوامش وتحت الأرقام وسأله: ماذا تقرأ؟ فقال وهو لا ينظر إليه: كما ترى! وانصرف وتركه يراجع ميزانية شركة الطيران العالمية. فما المعنى؟

لا معنى وإنما هي عادة انشغال بالأرقام والميزانيات التي لا تعنيه! ولم يكن د. مؤنس في حاجة إلى أن يقسم على صحة ذلك، ففي طوكيو وجدنا الصحافي الكبير موسى صبري مشغولاً هو الآخر بمراجعة الفواتير، فواتير الوفد الصحافي المصري كله، مع أننا ضيوف على الحكومة، والمطلوب منا فقط أن نوقع على الفواتير فلا يعنينا كم بلغت، ولكنه لا يستطيع أن يستسلم لما جاء في الفواتير دون مراجعة، وأعجب ما حدث أنه وجد خطأ في الحساب، أي أن الحاسبات الإلكترونية قد أخطأت وعاد وراجع الأرقام فتأكد لديه هذا الخطأ، وانقلبت الدنيا، فجاء مدير الحسابات ورئيس مجلس الإدارة ومندوب

شركات الحاسبات الإلكترونية وتأكدوا من أن الخطأ حقيقي، وكان الخطأ عبارة عن «ين» واحد.

وقد أصابهم هذا الخطأ بفزع عظيم، فلا أحد يعرف منذ متى تخطئ هذه الآلات الحاسبة، هل الخطأ مكسب لهم أو خسارة عليهم، وإذا كان هذا في فاتورة واحدة فكم ألفًا، كم مليونًا في فواتير أخرى!

وتلقى الأستاذ موسى صبري الشكر والهدايا والدعوة بزيارة اليابان وتلقى ورودًا من جهات لا نعرف من هي أو ما هي!

ونسأل: ولكن لماذا مراجعة الفواتير؟

لا يوجد سبب وإنما هي عادة لا فائدة منها! أو هي قدرة على الصبر، وهذه القدرة تصل إلى درجة الموهبة التي لاجدوى وراءها! وفي أحد الأسواق في القاهرة يوجد موظف يقف على مقعد ويتلقى الأرقام ويحسبها بسرعة، كان يقال له: نصف كيلو جبنة شيدر، ربع كيلو زيتون، كيلو أرز، وكيلو بطاطس و 7 كيلو سكر، وغير ذلك من البضائع المختلفة الأسعار والأوزان، وبعد لحظة واحدة يقول الرجل السعر الشامل لكل هذه السلع! والغريب أنه يعرف أسعار كل البضائع وأنه يجمع ويضرب ويطرح في لحظات، وتتزاحم على أذنيه أصوات الباعة، وهو لا يخطئ في الحساب، مقدرة موهبة ولافائدة منها، ففي استطاعة الآلات الحاسبة أن تفعل ذلك، ولكن صاحب المحل احتفظ بهذا الموظف لإثارة الزبائن وجذبهم أيضًا!

لا زيارة لمرضانا ولا نعي لهم!

لا أزور المرضى ولا أرثيهم إذا ماتوا، وعندي أسباب، فقد تعذبت كثيرًا بزيارة الأصدقاء في أسوأ حالاتهم، ولم أفلح في أن أخفف عنهم، ولا هم أفلحوا في التخفيف عنا، ورغم أن زيارة المريض واجب أخلاقي أو اجتماعي، ولكن عذاب المريض وعذابنا لا يمكن احتماله.

وكثير من الأصدقاء كانوا ضربات موجعة فلم أفلح في التخفف منها سنوات طويلة، العقاد وطه حسين والحكيم وأم كلثوم وعبد الحليم حافظ وعبد الوهاب وإحسان عبد القدوس وكامل الشناوي ومصطفى أمين وعلى أمين والتابعي والسادات.. وعندي حكايات، وإذا ماتوا فإنني لا أجد سببًا قويًا للكتابة عنهم، فهم الذين يهمونني، وهم ماتوا، وكنت أتمنى لو قرأوا ما كتبت، ولكنهم ذهبوا.

وقد حاولت أن أكتب عن المرضى قبل وفاتهم، أردت أن أقول لهم عن مدى خسارتنا الفادحة بعدهم، فكان ذلك سببًا آخر في حزنهم، لقد أحسوا أنني أرثيهم قبل موتهم، فغضب مصطفى أمين وعلي أمين، والشاعر صالح جودت ويوسف إدريس وإحسان عبد القدوس، مع أنني فقط أردت تحيتهم، أردت أن يقرأوا ما اعتدنا أن نكتبه بعد وفاتهم، بل وفوجئت بأن الكاتب الكبير موسى صبري قد شكاني إلى

السيدة جيهان السادات، وقال لها: إنه يرثيني مع أنني مازلت حيًّا، إنه يستعجل وفاتي!

وفي الأسبوع الماضي وجدتني مضطرًّا أن أزور صديقًا مريضًا، الأطباء يقولون الأعمار بيد الله، وأنه في أيامه الأخيرة، وجلست أكتب وأحييه وأطلب من الله أن يلهم أهله وأصدقاءه وأولاده الصبر على فقده، ولم أشأ أن أنشر المقال وهو لا يزال حيًّا يعاني، وفي نفس الوقت قررت أن أنشر المقال فيما بعد، أو أعدل نهائيًّا عن ذلك!

وخيرًا فعلت، فقد استعاد عافيته وكان نهوضه من فراشه تكذيبًا لكل توقعات الأطباء الذين سارعوا فقالوا: إن هناك معجزات، ثم إن الطب ليس علمًا دقيقًا، وكثيرًا ما مات من لا يتوقعون وفاته، وعاش من يتعجلون مماته.

وحمدت الله أنني ما نشرت، وأنه لم يمت!

ويومها أمطرت السماء دمًا!

عندما ذهبت إلى ولاية كيرلا الهندية لأول مرة كان يوم عاشوراء. وكانت الأمطار غزيرة، ولا أعرف إن كانت المياه تهبط من فوق أو تنفجر من تحتنا، وبلغت المياه أعلى الركبة والناس يهتفون «زندا باد».

سألت: قالوا إنهم يهتفون للحرية، ومعهم حق، فلولا الحرية والديمقراطية الحقيقية في الهند ما اختارت هذه الولاية الحزب الشيوعي حاكمًا لها، ولم تستنكر الدولة هذا القرار ولا تدخلت ولا حاولت أي فعل، وإنما الشعب أراد فاختار. والشيء الذي كان يرعبني هو كثرة الثعابين التي تجري بيننا وتحتنا وحولنا وتسبح في الماء، وكنت الخائف الوحيد، أما الناس حولي فقد اعتادوا على ذلك.

وفوجئ العالم كله بشيء مختلف يوم 28 سبتمبر سنة 2001، وظل العلماء في الهند وفي العالم يدرسون هذا الشيء الغريب، ولم يصلوا إلى رأي إلا أخيرا، فماذا حدث في أرض وسماء ذلك اليوم؟ لقد أمطرت السماء دما، وليس مطرا أحمر وإنما مطر شديد الاحمرار، وجاء العلماء الهنود والأميركان يجمعون عينات من المطر الدموي، وكان الرأي أنه ليس أحمر مثل رمال الصحاري، أي أن الهواء دفع الرمال

فاختلطت بالمطر ونزلت شديدة الاحمرار، وتحت الميكروسكوب لاحظ العلماء أن الذرات مستديرة وليست مربعة أو مستطيلة حادة الأطراف، إذن ليست رمالاً وإنما كأنها خلايا حية، ومعنى ذلك أنها ليست من الأرض وإنما من السماء.. من أين؟ اختلف العلماء، وقالوا إن السماء تمطر الكرة الأرضية بأشكال وألوان من الذرات الكونية الهابطة علينا من الكواكب القريبة، من المريخ مثلاً، أو من النيازك الضالة في الفضاء وإن الحياة على الأرض كانت فوق، قبل أن تهبط إلينا، وكل ما في الأرض من حياة قد جاء من كواكب أخرى أو من نيازك أخرى، وكل أبحاث العلماء الآن تدور حول الحياة التي كانت والتي جاءت، والتي لا تزال فوق، فالصخور التي سقطت من المريخ في القطب الشمالي، بعد فحصها تأكد أن بها نوعًا من الحياة، خلايا حية، كانت حية، وظلت ملايين السنين تدور في الفضاء في الحرارة والبرودة، ولم تمت، وآثارها باقية. أما كيف سقطت على ولاية كيرلا، فتفسيره ليس صعبًا، فهي سقطت كما سقطت من قبلها أحجار وتراب في ألوف ملايين السنين، وليس السؤال لماذا؟ وإنما السؤال كيف؟ كيف هبطت على هذا الجانب من الهند وليس على كل الهند ولا على الجزر القريبة، ولا على أي مكان آخر من الهند ومن قارة آسيا؟!

فأضافوا لغزًا إلى ألوف الألغاز وسرًا إلى ما لا نهاية له من أسرار الكون، «وليس علينا إلا أن ننتظر سنوات أخرى حتى نعرف حقيقة ما حدث»!

أن يكون الكتاب في جيبك!

هناك نوعان من الكتب، كتب تضعها في جيبك، وكتب تضعك في جيبها. وقد نشأت وكل جيلي على (روايات الجيب)، التي كان يترجمها ويصدرها الأستاذ عمر عبد العزيز أمين، وكانت هذه الكتب تبهرنا بما فيها من أفكار غريبة وأجواء مثيرة، ولم يكن يضايقنا إلا الأسماء الأجنبية. وهي ليست ترجمة كاملة، وإنما هي في معظم الأحوال مختصرة، ولكنها مثل أكواب الماء الصغيرة نقدمها لعطشان، صغيرة ولكنها تسقي ولا تروي.

أما الكتب التي تضعك في جيبها الصغير، فهي الموسوعات التاريخية والأدبية، مثل موسوعة عميد المؤرخين المصريين سليم حسن عن مصر الفرعونية، ومثل تاريخ الجبرتي ومثل تاريخ ابن إياس، وانحلال الغرب لفيلسوف الحضارة إشبنجلر، ودراسة في التاريخ لعميد المؤرخين الإنجليز توينبي وتاريخ الحضارة الرومانية لجيبون، ومن الأعمال الأدبية: الكوميديا الإلهية للشاعر دانتي وثلاثية نجيب محفوظ والإخوة كرامازوف لدستويفسكي والحرب والسلام لتولستوي والبحث عن الزمن الضائع لبروست، ودون كخوته

لسرفانتس، والأغاني للأصفهاني وفيض الخاطر لأحمد أمين، والوجود والعدم لسارتر.

بعض هذه التحف التاريخية لخصت ليسهل على القارئ الإلمام بها. فانحلال الغرب ظهر في مجلد واحد، وكذلك درس في التاريخ، ظهر في مجلدين بدلاً من عشرة.

وقد تقدمت للمجلس الأعلى للثقافة في مصر بضرورة تلخيص موسوعة سليم حسن، وهي سجل تاريخي توثيقي ضخم، وكل المطلوب هو اختصار أو استبعاد الكثير من النصوص التي ترجمها سليم حسن ليكون في متناول عامة المثقفين، وكذلك كتاب شخصية مصر للعالم الموهوب جمال حمدان.

ولا شك أن كثيرًا من الأعمال الأدبية تفقد بعض بريقها إذا ترجمت إلى لغة أخرى، ولكن الضرورة لها أحكام، ومن أحكام الضرورة أن نترجمها أو أن نلخصها، وهناك مثل إيطالي شهير يقول: الترجمة تجْرَمة – وتجرمة معناها في العامية المصرية ارتكاب جريمة، فالترجمة جريمة في حق النص الأصلي، ولكنها جريمة – إن صح أنها كذلك – من أجل أن يعيش النص وأن يكون له أثر فينا وبعدنا.

وليس أسهل من أن تضع الدنيا كلها في جيبك، ودوائر المعارف كلها مسجلة على أسطوانة صغيرة تضعها في بعض جيبك، وهذا اختصار للحجم وليس للنص، فما أسهل أن تكتب وما أصعب أن تختصر وما أقسى أن تختصر إذا كان النص من تأليفك أنت!

مشغول وبلا فائدة!

هذه معركة طويلة، وعلى أعلى المستويات، ولكن بلا فائدة، لا اليوم ولا غدًا.

المعركة أن عددًا من العلماء يؤكدون أن هذا الكون يتراجع أو يتسع، يتراجع عن ماذا؟ يتسع إلى أين؟ وقبل ذلك كان أين؟ ولماذا؟ وإلى متى؟

إن كان في استطاعتك أن تتابع هذه المناقشة فامض في القراءة، وإن لم تستطع فالحق معك، ولكنها معركة.

فعلماء الفلك يرون أن النجوم بكل أشكالها تتراجع، أو بعبارة أخرى أن الكون يمتد، فقد انفجر هذا الكون عن ذرة ضئيلة لا متناهية الكثافة، وهو يتباعد منذ 14 ألف مليون سنة، ورأي آخر يقول إن سرعة تمدد الكون تزيد، ولا أعرف إن كنت تستطيع أن تتخيل معنى هذا الكلام، ولكن هذا هو الواقع الفلكي.

ورأي يقول إن الكون سوف يتباطأ في سرعته مليون سنة بعد مليون سنة وفجأة مرة أخرى ينقلب على نفسه وينكمش وبنفس السرعة ويستغرق حوالي 14 ألف مليون سنة أو تزيد ليعود الكون كما

بدأ ذرة لا نعرف مدى ضآلتها وقوتها وكثافتها، وبعد أن يصبح الكون مرة أخرى هذه الذرة ينفجر، ويقول العلماء إن الانكماش والتمدد سوف يتكرر إلى ما لا نهاية!

والعالم الفيزيائي البريطاني ستيفن هوكنج يقول إننا لا نعرف لهذا الكون بداية أو نهاية، أو أنه بلا بداية ولذلك فهو بلا نهاية.

ورأي يقول إن الكون لا يخضع لقوانين واحدة، وإنما هناك قوانين مختلفة تتحكم في الكون، كما أن لكل الكائنات الحية قوانين خاصة بها، وليس لها قانون واحد، فكذلك الكون. وتقول علوم الفيزياء الفلكية إن في الكون انحرافات واستثناءات، والكون له منطق غير المنطق الإنساني، ونحن لا نفرض على الكون منطقنا، وقد ينفع المنطق في عالمنا المحدود، ولكن هناك أكثر من كون، أي أكثر من بداية وأكثر من نهاية، أو لا بدايات ولا نهايات – ولا منطق!

وكلها نظريات غير مريحة، فلا العقل استراح عندما اكتشفها ولا استراح في البحث عن بديل لها، ولكن هذا هو الكون في حدود العقل الإنساني، ولا يوجد عقل آخر يهدينا إلى الصواب في هذه الساحات والأعماق والأبعاد والأزمات اللا نهائية!

فهل استراح عقلك؟ الجواب: لا.

إذن ما الفائدة؟ لا فائدة، وليس الكلام عن الكون اللا نهائي له أية فائدة عملية أو آجلة أو عاجلة، ولكنه العقل الإنساني، مشغول بكل ما لا نعرف لعله يعرف، ولو لم تكن فائدة لذلك!

إنها أحلامهم الصغيرة!

عندما كنت في مدينة كييف عاصمة أوكرانيا فوجئت بوجود تمثال للزعيم الشيوعي لينين، اندهشت، فقد تحطمت كل التماثيل بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ووجدت عروسين أمام التمثال من أجل صورة تذكارية، تمنيت أن أكون تمثالاً لأشاهد جمال العروس، تحفة فنية، العروس وليس التمثال، وكان من أحلامها إذا تزوجت أن تقف أمام تمثال لينين. وفي القاهرة نجد العروسين يقفان على الكباري ليكون لهما صورة فوق الكوبري ووراءهما النيل في قمة جماله ليلاً! أمنية متواضعة.

وأذكر عندما عدت من رحلتي حول العالم سنة 1960 أنني حملت معي عددًا من الراديوهات الترانزيستور، ولم يكن أحد في مصر قد رآها، وجاءني زميل صغير ليقول لي حمدًا على السلامة وأنه إذا انفتحت له طاقة القدر فسوف يطلب من الله راديو يابانيًا، وأعطيته الراديو!

وعندما صدرت صحيفة «الأخبار» المصرية سنة 1952 ابتدع التوءم مصطفى أمين وعلي أمين فكرة (ليلة القدر)، فيطلب القارئ تحقيق إحدى أمنياته، والأمنيات تختلف باختلاف الصغير والكبير

والمريض والسليم، من دراجة إلى شقة إلى العلاج، وكانت المفاجأة أن سيدة تعيش في السيدة زينب قد طلبت أن ترى محل شيكوريل، أي منتهى أملها قبل أن تموت أن ترى هذا المحل الذي يبعد عنها مشيًا على الأقدام نصف ساعة! وكان لي صديق مسيحي، وفي الأيام الأخيرة لوالده كانت أمنيته أن يرى ابنه الوحيد قد ذهب إلى الأراضي المقدسة يصلي في كنائس المهد والقيامة وأن يبكي عند جبل الجلجثة الذي صلب عليه السيد المسيح، وحاول الابن أن يقنع والده أن المسافة بعيدة وأن هناك صعوبة في الوصول إلى هذه الأماكن، وكان الرجل يبكي، ولذلك لجأت إلى حيلة فطلبت من أحد الزملاء الفنانين أن يرسم شهادة فخمة مكتوبًا فيها: لقد ذهب فلان الفلاني وصلى في كنيسة المهد وصلى في كنيسة القيامة وسار باكيًا في طريق الآلام وأفرغ ما في عينيه من دموع عند جبل الجلجثة، وأنه الآن يحمل لقب المقدس فلان.

وكانت سعادة الرجل سعادتين، فابنه قد تاب الله عليه وأكرمه، ثم إنني ما دمت قد ذهبت معه فقد صرت مسيحيًّا!

وأمي يرحمها الله كان منتهى أملها أن تحج، ولكن حالتها الصحية لا تسمح وأرى الدموع في عينيها وأخفي دموعي، ولا أعرف كيف تسافر وهي مريضة فتموت في الحج، ولم أجد إلا حلاً واحدًا، انفردت بها وقلت لها: يا ماما هل أنا أكذب؟ فهزت رأسها أي أنني لا أكذب، هل أنت على يقين من حبي لك؟ فهزت رأسها أي نعم، فقلت لها سوف أقول لك سرًا، وأرجو ألا تحدثي أحدًا عنه وألا تسألي أحدًا،

واعتدلت أمي يرحمها الله، فقلت لها: يا ماما البحر الأحمر الذي بيننا وبين السعودية قد تجمدت مياهه، فلا سفن تروح وتجيء. وكأنها لم تصدق، وقلت لها: أكثر الذين يقولون إنهم ذهبوا بالبحر وعادوا لم يسافروا وإنما اختبئوا في السويس، والآخرون ذهبوا وعادوا بالطائرات التي يحرمها الأطباء عليك.

يرحمها الله ماتت وهي على يقين من أن البحر قد تجمدت مياهه!

يا سيدي: افعل ما بدا لك!

إنها حكاية أين تضع يدك. يقال إن متهمًا وقف أمام القاضي وقد وضع يده في جيبه، فغضب القاضي وقال: أخرج يدك من جيبك يا قليل الأدب! قال المتهم: ياسيادة القاضي والله أنا محتار، إن وضعت يدي في جيبي فأنا قليل الأدب، وإن وضعتها في جيوب الناس فأنا لص، قل لي سيادتك أين أضعها؟

وهي أيضًا حكاية جحا وابنه وحماره، إذا ركب ابن جحا الحمار قالوا: الولد قليل الأدب، كيف يترك والده يمشي وراءه، وإذا ركب جحا حماره وترك ابنه قالوا: رجل لا رحمة عنده كيف يترك ابنه الصغير يمشي وراءه، وإذا ركب الاثنان الحمار قالوا: ليس عندهما رحمة، وإذا سار الاثنان وراء الحمار قالوا: مجنون وابنه! وتساءل جحا: ما الذي أفعله، أنا لا أستطيع أن أحمل الحمار وابني فوقه؟

وقال شاعر مصري فصيح:

ضحكت فقالوا: ألا تحتشم؟ بكيت فقالوا: ألا تبتسم؟
بسمت فقالوا: يرائي بها عبست فقالوا: بدا ما كتم
صمتّ فقالوا: كليل اللسان نطقت فقالوا: كثير الكلم

حلمت فقالوا: صنيع الجبان ولـو كـان مـقـتـدرا لانـتـقـم
بسلت فقالوا: لطيش بـه ومـا كـان مجترئـا لـو حـكـم
يـقـولـون: شـذّ إذا قلت لا وإمّـعـة حـين وافـقـتـهـم
فـأيقـنـت أنيَ مهمـا أرد رضا الناس لابد من أن أذم!

وأنا إذا نشرت شعرًا قالوا: ليس عنده ما يقوله. وإذا لم أنشر شعرًا قالوا: صناعته الأدب ولا يحفظ بيتًا واحدًا ويدعي أنه شاعر ابن شاعر، وإذا قلت: شاعر قالوا: فأين شعره؟ وإذا قلت كان والدي شاعرًا قالوا: لم نقرأ له ولا عنه. وإذا نشرت شعرًا لوالدي قالوا: بل من تأليفي أنا، وإذا نشرت شعرًا لي قالوا: بل نظم والده.

فبالله ماذا أفعل؟ وأنا أتولى عنك الجواب: أن أقول ما يعجبني، فأنا لن أحصل على الأغلبية المطلقة للقراء في كل شيء!

الفراعنة وجدوا لنا حلاً!

عندما تجلس مع نفسك وتقول: وقلت ياواد اقصر الشر. أو عندما تقول: رحت آخد وأدي مع نفسي وفي الآخر قررت كذا أو تقول: ندمت. وغلطت نفسي. أي أن هناك حوارًا في داخلك.. واحد يقول والثاني يرد عليه.

السؤال: من الذي يقول لمن، من الذي قرر أنك غلطان، ومن الذي وافق على هذا الغلط، من الذي حاكمك ومن الذي أدانك، أو حكم لك أو عليك.

هذه إحدى مشاكل الفلسفة الوجودية المعاصرة، وقد تناولها الفيلسوف مارتن بوبر وهو يتحدث عن الحوار الداخلي، أو الإدانة الداخلية بين اثنين هما في الحقيقة شخص واحد؟ قد تقول إن أحدهما هو صوتك والثاني هو صوت الضمير.

ولم تذهب الفلسفة الوجودية إلى أبعد من ذلك. لكن الفراعنة أجدادنا عرضوا المشكلة ووجدوا لها الحل في إحدى أوراق البردي في متحف برلين، وقد ظهرت لها ترجمة حديثة، وكان قد أشار إليها عميد الأثريين المصريين د. سليم حسن.

البردية تقول إن شخصًا اختلف مع روحه ودار بينهما حوار طويل، ولم تجد روحه إلا حلاً واحدًا لكي تخلصه من مشاكله النفسية والاجتماعية والمادية وفقدان الصديق وابتعاد الأقارب، قالت له: انتحر. ولما وجدته يوشك على الانتحار بأن يلقي نفسه من جبل، اقترحت عليه أن ينتحر حرقًا، لماذا؟ لأن روحه هذه قررت أن تدخل معه القبر. فالقبر مظلم. وما دام فقيرًا فإن أحدًا لم يعد له الطعام والشراب الذي يحتاجه عندما تعود له الروح، ووافق على الانتحار بشرط أن تقوم الروح بإعداد الجنازة له والبكاء عليه، مادام بلا صديق ولا أخ ولا أخت.

ثم عادت الروح تقول له: ليس من المعقول أن تعذب نفسك حيًا وميتًا، وإنما الحل أن تعيش وتتمتع بالدنيا وأن تستأنف كل ما فاتك من نعم الحياة، وأمامك فرصة أن تبني لك قبرًا وتضع فيه من الطعام والشراب والذهب ما سوف تحتاج إليه، وفي هذه الحالة لن أفارقك وندخل القبر معًا، فليس لك إلا نفسك في هذا الزمن اللعين الذي يهرب فيه الناس منك كأنك سمكة متعفنة!

والمعنى أنك شخص واحد وأن الإنسان له صفات جسمية ونفسية واجتماعية، وأن هذه الأنفس هي شخص واحد، وأنه هو المحكمة والقاضي والشهود وأنه القاضي والمحامي والجلاد، وأن القرار قراره وهو وحده المسئول عن كل ذلك، وأنه وحده الذي يقرر أن يعيش أو يموت، وأن يموت كأنه لا حياة بعد ذلك، وهي أعلى درجات الحرية والمسئولية أيضًا، تصور أن هذا كلام عمره ثلاثة آلاف سنة!

جمال الدموع وهي تتساقط

الحديث النبوي الشريف يقول: «ذكاء المرء محسوب عليه.. أو محسود عليه».

وإليك هذه القصة من الفلكور الفرعوني، إنها حكاية «الفلاح الفصيح»، شكوى الفلاح الفصيح وهي شكوى واحدة ولكنه قد صاغها ثماني مرات، ولكن لماذا؟

أقول لك الحكاية: إنه فلاح طيب قويم الخلق، سرق اللصوص ما لديه من مخزون الغلال، ولم يسرقوا حميره، فاستخدم هذه الحمير في نقل حبوب وبذور الفلاحين إلى السوق، وفي السوق كان عليه أن يستبدل بها أطعمة وغلالاً أخرى، لابد أن يبيت حتى الصباح، وكان هناك إسطبل يملكه موظف يعمل في الديوان الملكي، أعجبته الحمير، فلفق تهمة للفلاح، بأن وضع أمامها سيقان القمح، واتهمه بالسرقة، وانهال عليه ضربًا مبرحًا، وقرر الفلاح أن يشكوه إلى سيده الذي هو رئيس الديوان الملكي، ووجده في طريقه إلى زورق، فاستوقفه وحكى له حكايته، وكان فصيحًا بليغًا، فاندهش الرجل الذي طلب من أحد الموظفين أن يتحقق من كلامه، واستمع إليه ووجده بليغًا، فعاد لسيده بحديثه عن فصاحة الفلاح واستدعاه واستمع إليه، ونقل هذه

الشكوى إلى الملك الذي استدعاه واستمع إليه. وأعجب به الملك، وكلما جاءه أحد من الكهنة أو النبلاء طلب من الفلاح أن يجدد شكواه، وكان الفلاح يتفنن في الشكوى، وقد احتفظ لنا التاريخ بشكاواه الثماني، وهي تحفه أدبية، وكان الملك وزواره يتعجبون لهذا الفلاح البليغ، هل هو البليغ أو أن الظلم أنطقه بالبلاغة والحكمة، وهل الظلم فصيح والعدل أخرس؟ وقد لاحظ الفلاح أن الملك والنبلاء يتسابقون في الاستماع إلى حكاية واحدة يرويها واحد بأشكال مختلفة، مرة يبدأ بالنهاية ومرة ينتهي بالبداية، وهو في جميع الأحوال يشيد بالعدل والخير. ويرى أنها جميعًا يمكن تحقيقها إذا أراد الملك، وأن الملك قادر على العدل بإشارة من إصبعه، وأن الملك هو وحده الذي يستطيع تسكين العدل والرحمة في قصره وفي كل دواوين الحكومة!

ولم يقل لنا التاريخ ماذا حدث للفلاح الفصيح، فلم يعد أحد يتحدث عن الحمير التي سرقت، ولا عن الظلم الذي وقع، ولا عن رد اعتبار المواطن الغلبان الذي أهين والذي وقفت البيروقراطية المصرية كلها ضده.

وإنما دخل التاريخ بهذه البكائيات البديعة. فهو إذن، قوس قزح لامع الألوان فوق سحاب أسود. لقد عاش الظلم البليغ ومات العدل الأصم الأبكم، لأن الدموع الحزينة لا تهم وإنما شكلها الجميل وهي تتساقط!

أدب الأظافر الطويلة

1- وخاب أمل الناس فيه

بعد الحرب العالمية الأولى والثانية وبعد الثالثة – إن شاء الله – يتطلع الناس إلى السماء، لعل الله يبعث لنا بمن ينقذنا مما نحن فيه من ضياع، فقد انهارت كل النظريات وكل المبشرين بها، انهارت الشيوعية والنازية والفاشية، وفي تراب الانهيارات الفلسفية والنفسية، يخيل للناس أن فوق التراب ظهرت مواهب.. أن فوق السحاب الأسود راح قوس قزح يلمع، ويرسم أشكالاً وأحجامًا من الناس ومن الكائنات، هل هي حقيقة؟ هل هي وهم؟ هي وهم ولكن حاجتنا إلى من يعيننا على أنفسنا هي الحقيقة، فظهر أنبياء كاذبون وآلهة نصابون في أميركا وغيرها من البلاد، لقد وجدوا فراغًا فملأوه كذبًا، ووجدوا قواعد لتماثيل اختفت فوقفوا على هذه القواعد وقالوا: أنا ربكم الأعلى، وانحنى الناس وركعوا وسجدوا، فلديهم استعداد للإيمان بالخرافة، مجانين؟ ليسوا مجانين، وإنما الضياع والدمار النفسي والخراب العقائدي، والحاجة إلى مرشد وإلى من يهديهم سواء السبيل، فظهر النصابون والأفاقون.

ففي أمريكا ظهر طفل في برنامج يشبه برنامج (من سيربح المليون) يجيب عن أسئلة خرافية، مثلاً: كم عدد أرجل النمل على جبل الهملايا يوم 23 من يناير الماضي، وبسرعة يرد الطفل وصاحب البرنامج يصرخ لأن هذا صحيح، ثم يعود يسأله: كم عدد الدموع التي ذرفها المسيحيون الطيبون يوم صلب المسيح؟ فيرد الطفل، والمذيع يصرخ: إن الرقم صحيح. ويسأله مرة أخرى كم عدد دقات قلبك منذ وجهت إليك أول سؤال؟ ويجيب الطفل والمذيع والناس يصرخون: معجزة.

وفجأة يقف المذيع ويلفت الأنظار والأسماع إلى السؤال الأخير الفاصل في هذه المباراة المستحيلة يقول المذيع: قل لي أيها الطفل إذا اشتعلت النار في غابات الأمازون وكانت درجة حرارتها مائة وخمسين مئوية لمدة عشرين ساعة و 15 دقيقة وثانية واحدة فكم عدد الأوراق التي احترقت؟

وبسرعة يقول الطفل: العدد واحد وأمامه 17 صفرًا! ويصرخ المذيع والناس ويطلبون من السماء أن ترحمهم.

وظل هذا البرنامج سنة، كسب فيها الطفل الملايين والناس يتساءلون: ماذا يأكل هذا الطفل وماذا يشرب؟ ما صفات أبيه وأمه؟ وإن كان من الممكن أن تتكرر هذه المعجزة في مجال آخر.

وفجأة انكشف الطفل، فليس معجزة وإنما صاحب البرنامج اتفق معه على الإجابة واقتسام الملايين!.. وخاب أمل وأحلام الناس!

2- قدري: أن أحيا بالدموع!

لا أستطيع أن أحصي عدد المرات التي كتبت فيها عن غادة السمان، التي كانت زميلة صحافية، ولا أذكر أنني رأيتها، وإن كنت قد تلقيت منها خطابات صغيرة في ذلك الوقت، ولكنها بهرتني وكنا – نحن المصريين – مبهورين بالسوريين الذين يتذوقون الشعر، وكنا نضحك ونقول، إن الوزير السوري، أي وزير، عندما يأخذك على جانب من الغرفة، فأنت تظن لأول مرة أنه سوف يخصك بخبر مهم، وتكون المفاجأة: أنه يريد أن يلقي عليك أبياتًا من الشعر!

وعندما غنت نجاة قصيدة (أيظن) تعجبنا لهذا الكلام، وكنا نقول إن نزار قباني هو شاعر (أيظن)، مع أن له قصائد أخرى أكثر وأجمل. فنحن لا ننشغل بالشعر كثيرًا، ويرغم قصائد أم كلثوم وعبد الوهاب، فإننا لا نميل كثيرًا إلى الشعر، وكنت مبهورًا بعبارات غادة السمان وجرأتها أيضًا.

ولكن عندما قرأت رواية (أنا أحيا) لليلى بعلبكي تمنيت أن تكون أقصر، أما الذي هزني وأدهشني وأزعجني فهذه العبارات النابية والكلمات البذيئة على لسان البطلة، وهي تشتم أباها وأمها، ورأينا في ذلك الوقت أن هذا خروج وأن الخروج هو بداية الحرية، وأن الحرية

لها أنياب وأظافر، وأن فلسفة المرأة الجديدة هي المخالب والأنياب تمزق بها ملابس الرجل وظلمه وخداعه، وهذا هو الجديد!

كانت ليلى بعلبكي، من دون حياء، تبصق في وجه والدها، أي في وجه المجتمع وكل ما هو كبير، فهذه ثورة النساء على الرجال، وقبل ذلك كنا نرى أن البطلة نورا في مسرحية (بيت الدمى) للأديب النرويجي ابسن، غضبت من زوجها وثارت عليه وأغلقت الباب في وجه الزوج وفي وجه القرن التاسع عشر كله، أما ليلى بعلبكي فقد بصقت على القرن العشرين، وهي لم تسمع التصفيق الحار لها في كل مكان، ولم تكن لليلى بعلبكي رسالة أبعد من ذلك، فقد جاءت روايتها الأولى خلاصة ما لديها، فقالت كلمتها واختفت زوجة في أحضان رجل إنجليزي!

وجاءت الشاعرة المصرية اليهودية جويس منصور لتذهب في ديوانها إلى أبشع من ذلك كثيرًا، فقد أقامت للجنس والعشق تمثالاً، ولم تكتف بأن تركع وتسجد أمامه وحوله، وإنما دعت الناس جميعًا إلى ذلك، إنها فتاة غنية عاشت شيوعية وماتت فوضوية، هي حرة، وهذه الحرية تساوي كل ما ارتكبت من حماقات!

3- تعرت تمامًا ولا يراها أحد؟!

لم تستطع الأديبات المصريات أن يجارين أديبات سورية ولبنان وفرنسا في الحديث عن الحرية الشخصية، الجنسية مثلاً، وإنما انشغلن بما هو أسهل وأسلم: الحرية السياسية، وهي أدنى درجات الحرية، ولذلك لم تلق لطيفة الزيات حفاوة كبيرة، وإنما كعادة الشيوعيين فهم ينفخون في أي شيوعي حتى لو كان بلا موهبة، فالمهم عندهم أن يزيدوا واحدا أو واحدة، وأن تكون مظاهرة، وأن يكون احتجاج على الحاكم وعلى المحتل، وفي هذا المجال برزت لطيفة الزيات، ولكن لم تكن موهوبة، ولا كان الطبل والزمر من أجلها عملاً فنيًا، ولم تدخل مجال الأدب وإنما حشروها بسرعة في مجالات السياسة الهامشية.

وكان من الممكن أن تقفز الدكتورة نوال السعداوي إلى الصفوف الأولى، فهي طبيبة تعرف الكثير، وعباراتها قوية، وجريئة أيضًا، وهي التي اختارت أن تصدم الناس بهذه الصورة، أي بالصورة التي اختارتها هي، والذي تقوله نوال السعداوي صحيح، ولكنها اختارت أن تكون مزعجة مع أنها ليست في حاجة إلى ذلك، والفرق بينها وبين لطيفة الزيات كالفرق بين واحدة ارتدت فستانًا قصيرًا قديمًا،

كالعمال والفلاحين، وبين واحدة ارتدت فستانًا قصيرًا شفافًا لا يخفي ما تحته، لأنها حرة ترتدي ولا ترتدي إلا ما يعجبها ويؤكد حريتها، ومعها كل الحق في أن تكون حرة، ولكن أن تكون حريتها فقط أن تتعرى وأن تلعن كل من يعترضها أو يعارضها فهذه غلطتها، وهي لذلك فقدت قضيتها، وخسرت الكاتبة احترام الناس لها في مصر، وإن كانت قد كسبتهم في أماكن أخرى من العالم!

وقد ذهب الناس في نقدها إلى تجريحها واتهامها بالجنون، أما أنها مجنونة فليست كذلك، ولكن أمام الأسلوب الجارح الذي لجأت إليه دفاعًا عن نفسها، واجتراء على الناس، كان لابد أن تستخدم أسلحة أعنف وأن تلجأ إلى بلاد أخرى تنصرها على أهلها، وهي في أوروبا وأميركا ليست جديدة ولا حتى جريئة، فالذي نراه خارجًا علينا، ليس كذلك هناك، وإنما هم ينظرون إلى نوال السعداوي على أنها تقدمت مجتمعها وأناسها وأهلها، وهي التي تقدمت وأهلها متخلفون.. نلهث وراءها أو نضربها بالطوب!

فحماسهم لها تشجيع لتحرير المرأة من ربقة الرجل، ونوال السعداوي حرة تمامًا، ولكن لم تعد لها معركة الآن، فقد انصرف الناس عن كلام لها أقرب إلى الشتيمة.

4- طبيبة أديبة سعودية: يا هلا!

شكرًا لساعي البريد، فقد ألقى رواية عنوانها «صمت يكتبه الضباب» لسعاد جابر، طبيبة سعودية. رواية؟ الغياب فيها يكتب الصمت. أي أن الغياب أقوى من الصمت الذي هو أقوى من الكلام، كيف تفرز هذه المعادلة رواية أدبية، تلك إذن كيمياء الطبيبة الأديبة، فالدكتورة سعاد جابر هي الأخرى تكتب بالغياب على الصمت، إننا نشم رائحة مصطفى صادق الرافعي في كتبه: السحاب الأحمر وأوراق الورد ورسائل الأحزان، والشاعر محمود حسن إسماعيل صاحب التراكيب الفريدة في الشعر والأدب في ديوان «أغاني الكوخ». ولكنها لا تذكرنا فقط بهذه المدرسة البلاغية البديعة في الأدب. وإنما هي اختارت مرثية جميلة، يشغلك جمالها عن حقيقتها، تشغلك روعتها عن العطف عليها والوقوف إلى جوارها، وإنما أنت مأخوذ بهذا السيل الجارف من الآهات والدموع نعم، دموع؟ نعم. وكبرياء أيضًا، وقد جنت عليها بلاغتها فأنت مشغول بها ولا تسأل ما الذي حدث، فهي رواية، ولابد أن يكون بها من أولها لآخرها أحداث، ولكنها بلا أحداث، وإنما هناك انفجارات وسحب ودخان وكل شيء يبرق ويلمع. الله.. هي التي اختارت أن تقسو عليها لأنها شغلتك بدنياها، إنها طبيبة

ولكن لا شيء يدل على ذلك، فلا هي قطعت عرقًا، ولا أسالت دمًا، وإنما هي شرحت مادتها، وليست مادتها إلا هي، فهي تتقلب وتتألب وتئن.

قالت كلمتها ومضت، فقط أرادت أن تقول، فقالت، والفن هو أن يتخفف الفنان من ثمار ثقيلة على فروعه، لايهم أن تكون حلوة أو مرة، إنها كبرت على أغصانها، وحان وقت قطافها، أما طعمها على لسان القارئ فلا يهم، ولكن على لسانها هي العسل والسم، والفنان لا يموت بالسم ولا يحب أيضًا، وسعادتها في المر، والمر في سعادتها.

استطاعت د. سعاد جابر أن تبهرك بما لديها من كنوز بلاغية لا تنفد، لم تنفد، واختارت صعوبة أخرى وهي كيف ترى بعين واحدة وتسمع بأذن واحدة وتلقي بما أبدعت على المطبعة والمطبعة تطلق رواية بريدية على القراء، فهي لا تقصدك ولا أحدًا، إنما الذي قصدته نفذته، والذي نفذته هو ما أعدته نفسها له.

أهلاً بك أديبة إن كانت هذه عينة مما لديها، فهي تحفة أدبية، وإن كان كل ما لديها، فخسارة ألا يكون عندها أكثر وأكثر فهي قادرة على ذلك!

ياهلا أيها الحزن!

حماره قال له وقال لنا!

نشرت الصحف الأمريكية أن مليونيرًا ترك ثروته لكلابه. وقال إنها أكثر الكائنات إخلاصًا. والحديث إليها ممتع! ويقول إنه كثيرًا ما تكلم إلى كلابه وكانت آراؤها سديدة كلها! رجل يتحدث إلى الكلاب. ويقول وترد عليه. ويقول إنه استمتع. ولذلك كافأها على ذلك بأن ترك لها ثروته! وكان الدكتور حسين فوزي يملك خمسين قطًا. وكان يتحدث إليها. ويقول إنه حديث ممتع. كيف؟ هو يقول. والدكتور لويس عوض كانت لزوجته الفرنسية سبعون قطًا تقفز على فراشه وعلى مكتبه وعلى كتفيه. وكثيرًا ما كان يعتذر عن محاضراته لأنه على موعد مع بعض القطط التي تسعده كثيرًا بالحديث إليها؟! وكان للأستاذ العقاد كلب اسمه بيجو. وكان يتخذه العقاد نموذجًا للإخلاص الأعمى. ولكنه نوع من الإخلاص على عكس الإنسان الذي لا يستطيع أن يخلص إلا إذا رأى – رأى الفائدة من وراء ذلك. ولكن الكلب مخلص مجانًا! أما توفيق الحكيم فعنده حماره. وله مقالات كثيرة عنوانها: حماري قال لي.. حمار الحكيم.. وعصا الحكيم. وكان توفيق الحكيم قد اشترى حمارًا وتركه عند الطباخ وكان يزوره – أقصد الحمار– في غياب الطباخ حتى لا يسمعه وهو يتحدث إلى الحمار فيصف الحكيم بالجنون!

وطلب مني الحكيم أن نذهب إلى سوق الحمير في إمبابة. وانتقى جحشًا صغيرًا جميلاً. وتساءلنا كيف ننقله إلى المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون (المجلس الأعلى للثقافة).. وربطنا الجحش في سيارتي وقاوم الجحش. فاقترح الحكيم أن يستقل خادمه التاكسي ويمشي وراءنا. فمن يدري ربما قطع الحبل وانطلق في شوارع القاهرة. وما توقعه الحكيم قد حدث.. فالجحش كان عصبيًا بسبب السيارات وإشارات المرور وتزاحم الناس حوله.. قطع الحبل وهرب. ونظرت إلى توفيق الحكيم. فلم أجده قد تضايق. وإنما راح يفكر في ما حدث وفي المقال الذي سوف يكتبه عن حمار لم يحاوره بعد.. وضحك الحكيم وهو يقود ها ها.. إننا لم نفكر كالجحش وإلا لعرفنا أين ذهب الآن.. مهما تعلمت من هذا الحيوان الظريف فلن أفلح في أن أكون حمارًا. بينما كثيرون وصلوا إلى هذه الحالة بلا مجهود! وقد اتهم العقاد توفيق الحكيم بسرقة الحمار.. حمار الكاتب الإسباني خمينيز فقد كان له كتاب رقيق بديع اسمه (بلاتيرو وأنا). وكلمة بلاتيرو معناها ذو الشعر الفضي.. وكان الحكيم يقول: سرقت حمار خمينيز ولم أسرق لون حماره. فإذا كان حماره فضيًا فحماري بني.. وفي يوم فوجئنا بمصطفى أمين ينشر في مجلة (الإثنين)، صورة لتوفيق الحكيم مع حماره.. وكتب: اختبر ذكاءك أيهما توفيق الحكيم؟!

عبث من الوزن الثقيل(2 -2)

ونشر الخبر في الصحف مع تعليقات بديعة، وتحت عنوان (خسارة): أي خسارة أن فريد الأطرش لم يمت، وأن هذه الفتاة لم ينفذ فيها حكم الإعدام وأدخل أنا السجن كشريك في محاولة قتل عمد مع سبق الإصرار والترصد!

وتحت عنوان «اللعب بالنار»: أنيس منصور لعبته المرأة، والمرأة لعبتها فريد الأطرش، وفريد الأطرش لعبته سباق الخيول. فلماذا لا تركب المرأة أعلى ما في خيول فريد الأطرش وتحل عنا وفي ستين داهية؟! وتحت عنوان: ماذا يكون لو حدث العكس. أي لو كان فريد الأطرش هو الذي كان يحب هذه الفتاة التي خدعته وأحبت أنيس منصور؟ ولا حاجة، كان فريد الأطرش يطلب من الشاعر الغنائي حسين السيد أن يؤلف له أغنية ويلحنها فريد الأطرش لكي يغنيها في جنازة أنيس منصور بعد أن تكون هذه الفتاة قد قتلته بتحريض من فريد الأطرش، ويا فرحة عبد الحليم حافظ وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب!

وقال الفنان الكبير يوسف وهبي: أضاعوا الوقت في التفكير والتدبير، ولو كانوا عقلاء لجاءوا جميعًا إلى المسرح وأطلقت عليهم

الرصاص مع عبارتي التقليدية: اذهب ياعدو الله عليك اللعنة. وسوف يصفق الجمهور! وإذا سألني أحد لماذا قلت «اذهب وليس اذهبوا، السبب هو أنني أريد أن أقتلهم واحدًا واحدًا، على حسب الحروف الهجائية: أنيس وفريد وليلى، وسوف ينزل الستار، وأتوجه إلى الجمهور كله قائلاً: أنا بريء والظالمون أنتم، عليكم اللعنة»!

وفي برنامج ما يطلبه المستمعون طلبوا أغنية عبد الحليم حافظ: «ظلموه»! وطلبوا لعبد الوهاب: «لا مش أنا اللي أبكي»!

وطلبوا لأم كلثوم: «هوه العمر إيه غير ليلة»! ومن ليلى مراد: «علشانك انت أترمي في النار والقح جنتي».

وما دمت أنا قد أعطيت تذكرتي للسفر للفنانة كاميليا واحترقت بدلاً مني ثم كلفتني جريدة (الأهرام) أن أذهب وأكتب عن التي فدتني بروحها عن غير قصد مني، وإنما هي إرادة الله أن أذهب مرة أخرى وأكتب عن الضحايا، فقلت: ولكني سأكون واحدًا منهم، قالوا ننشر الخبر ثم نكذبه في صفحة الوفيات!

ولا عزاء لأحد، فلم يكن كل ذلك إلا عبثًا من الوزن الثقيل!

أرجوك لعلك تجد حلاً؟!

هذه حكاية إغريقية قديمة، يقال إن رجلاً كان يملك حمارًا، وكان الناس يستأجرون هذا الحمار للانتقال أو لحمل بضائعهم من مكان إلى آخر، وفي يوم كان الجو حارًا ووقف الحمار، وجاء الذي استأجره وجلس في ظل الحمار، فتشاجر الرجلان لأن صاحب الحمار لم يؤجر له الظل، وإنما الحمار فقط، واحتكموا إلى الناس، وفي انشغال الناس بهذه القضية الفقهية هرب الحمار!

المعنى: أن الناس يضيعون وقتهم في التفاهات، فماذا كان قد جرى لو نام الاثنان في ظل الحمار، ولكن بعض الناس طماعون، أو بعضهم متزمت لا يرضى بما دون التطبيق الحرفي للاتفاق.

وهذه قضية مصرية حديثة، كان من عادة الأستاذ توفيق الحكيم، وهو عضو في المجلس الأعلى للثقافة، أن يترك مكتبه ويجلس في الحديقة، وعنده لذلك أسباب كثيرة، أولاً: أنه يضيق بالمكتب، ثانيًا: أنه لا يريد أن يرد على المكالمات الهاتفية، وثالثًا: وهو الأهم أن يجلس تحت ظل شجرة مانجو، هذه الشجرة جذورها في أحد القصور المجاورة، أما فروعها وثمارها فقد امتدت إلى داخل المجلس الأعلى للثقافة، أما القضية فهي: هل أكل هذه الثمار يعتبر سرقة من شجرة

يملكها شخص آخر، مع أن هذه الشجرة هي التي امتدت إلى داخل المجلس، يريد الحكيم حلاً لهذه المشكلة، وظل الحكيم يفكر عندما جاء موظفو المجلس وأكلوا كل هذه الثمار، وظل الحكيم يفكر ويفكر!

وهذه حكاية فرنسية حديثة للأديب كوتوريل يقال إن واحدا أعزب كان يسكن في الطابق الثالث، وجاءت الحكومة وأقامت جسرًا عاليًا أصبحت نوافذ هذه الشقة تطل على الكوبري، وكان من عادة هذا الساكن أن ينام عاريًا ليستمتع بأشعة الشمس، وأصبح الناس يمشون فوق الكوبري ويرون الرجل عاريًا، سؤال «هل هذا الذي يفعله الساكن يعتبر فعلاً فاضحًا؟ بعبارة أخرى: واحد في بيته يتعرى وجاء الكوبري ورفع الناس إلى مستوى هذا الساكن العريان، فمن هو الغلطان؟ الحكاية عنوانها: المادة 123 من قانون العقوبات، أو بعبارة أخرى: من الذي ينطبق عليه القانون، هل هم الناس الذين يحشرون أنوفهم وعيونهم في خصوصيات الآخرين، أو هو الرجل الذي يتعرى وكأن أحدًا لا يراه، ولا يضايقه هذا المنظر؟ فهل العلاج والمعالجة ألا يتعرى الرجل أو أن يمشي الناس في الناحية الثانية من الجسر؟

إن وجدت حلاً فقد أسعدت صاحب الحمار وتوفيق الحكيم أيضًا!

كأنني لم أحفظها من قبل!

حفظت القرآن الكريم في العاشرة، ككثير من أبناء الريف، ولابد أن أعود إلى قراءته حتى لا أنسى، والآن أصبح الأمر سهلاً، فهناك أجهزة تسجيل صغيرة، نفتحها ونستمع إلى القرآن الكريم سورة بعد سورة لكي نتذكر.

وقد لاحظت أنه في بعض الأحيان أكتشف أن بعض الآيات البليغة الحكيمة، كأنني أستمع إليها لأول مرة، وأيضًا المعاني التي تتكشف قد عرفتها لأول مرة، مثلاً ليس أسرع من قوله: كن فيكون.

ثم هذه الآية التي تدل على السرعة والبلاغة القاطعة، كيف؟ إنها عظمة الله، يقول الهدهد لسيدنا سليمان: جئتك من سبأ بنبأ يقين!

يعني بلغة الصحافة: عنده خبر لا نعرفه وهو مؤكد، خبر صحيح.

الخبر هو: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾.

بلغة الصحافة: عبارة سريعة قوية نهائية، جاء بخبر يقين، وبأن لديهم ملكة وليس ملكًا، وعندها كل شيء وعرش وتعبد الشمس!

لما عدت لقراءتها كأنها المرة الأولى، المرة التي اكتشفت فيها قوة الخبر وسرعة الأداء والقطع النهائي بأن الهدهد قد انفرد بهذا الخبر.

وقرأت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

[التغابن: 14].

ومن المؤكد أنني حفظت هذه الآية الكريمة، وأعدتها وكررتها عشرات المرات، ولكن لسبب ما عندما عدت لقراءتها أو لسماعها أحسست كأنها هي المرة الأولى، وأن هذه المعاني البليغة قد عرفتها لأول مرة.

فكيف حدث ذلك؟ لابد أن يكون في داخلي احتياج لهذا المعنى.. أو أن لدي المعنى ولكن ليس عندي هذا التعبير البليغ والصحيح نفسيًا واجتماعيًا.

إخناتون الذي افترينا عليه!

طويت الكتاب حزينًا على أحد أنبياء مصر الفرعونية.. بل النبي الواحد الذي نادى بالتوحيد قبل موسى عليه السلام. إنه إخناتون. أما شكله فغريب. قالوا مريض. تمامًا مثل توت عنخ آمون. والرسامون سخروا منه فتخيلوا له نهدين كبيرين وردفين أيضًا. وقالوا عنده استسقاء. ممكن أن يكون شاذًا جنسيًا؟ وأن تكون علاقته بأخيه الأصغر فضيحة تاريخية؟ وفي نفس الوقت أن يحرص على المجاهرة بهذه العلاقة. وأن يتزوج ابنته وأن يتزوج أخته. فشيء فظيع. فلم يكن مألوفًا هذا العدد من الزيجات ولا أن يكون له هذا العدد من الحريم.. وأن تغضب زوجته الجميلة نفرتيتي وتترك له القصر.. ثم ينادي بالتوحيد: الله نور السماء والأرض. وهي فكرة جديدة شاملة كاملة – فهل كل هذا صحيح. هل سليم حسن عميد مؤرخينا متأكد من هذه الفضائح الجنسية لشخصية باهرة في التاريخ القديم!

سألت العالم الكبير علي رضوان يوم الاحتفال به أمس.. يوم أعطته ألمانيا أعظم نياشينها الأدبية، فقد درس في ألمانيا وحصل على الدكتوراه من جامعة ميونخ. وسألت العالم الكبير الدكتور محمد صالح الذي كان مدير المتحف المصري. سألت الدكتور زاهي حواس

أمين المجلس الأعلى للآثار. هل هذا الكلام صحيح يا أساتذة قالوا: لا..

قال زاهي حواس: إن سليم حسن قد أخطأ عندما نقل رأي العلماء الأمريكان. فلم تكن معلوماتهم دقيقة..

قال لي الدكتور رضوان: إنه أخطأ في فهم إحدى اللوحات الموجودة في برلين. وفيها إخناتون يداعب أخاه. وهو رجل قد حرم الولد. فكانت له ست بنات. ماتت ثلاث منهن فذاب حزنًا ودمعًا عليهن!

وقال الدكتور محمد صالح: مصر الفرعونية لا تعرف القبلات. ولم يظهر أحد يقبل طفلاً ولا حتى ابنته أو زوجته. واللوحة الموجودة في متحف برلين قد أجلس إخناتون أخاه على ركبتيه وامتدت أصابعه تداعبه واقترب وجهه من وجه أخيه.. فظن أنه يقبله وهذا غير مألوف في مصر القديمة..

إن كثيرين من العباقرة أفسد صورهم في أعيننا أنهم شواذ: سقراط وشكسبير وأندريه جيد وجان جينيه وأوسكار وايلد وجورج صاند وكوكتو وشخصيات أخرى معاصرة.. لماذا؟ لأننا نريد أن نرى الذين نعجب بهم قد كملت أوصافهم تمامًا.. مع أن النقص والعيوب والانحراف طبيعي. ولكننا نصر على أن نراهم كاملي الأوصاف ولذلك نرفض عيوبهم – غلطتنا وليست غلطتهم!

قوية ذكية؟ نعم.. جميلة؟ لا!

قرأت بحثًا في إحدى الصحف العربية عن كليوباترة ملكة مصر، أما أنها قوية وذكية فلا شك في ذلك.. وكل الشك في جمالها. فلم تكن جميلة وصورتها على العملات النحاسية أكبر دليل على ذلك. ولكن من عادة الشعوب إذا وجدت القوي فإنها تضيف إليه الجمال والمال، وإذا وجدت الجمال تبرعت فتمنحه الجمال والذكاء.

وقيل إن كليوباترة كانت تعرف عدة لغات هي: المصرية القديمة والعربية والعبرية ويقال لغات أخرى، ومن المؤكد أنها فاتنة ساحرة غازية.

وقد تزوجت يوليوس قيصر وأنجبت منه قيصر الصغير، وتزوجت مارك أنطونيو وأنجبت منه توءمًا وولدًا ثالثًا، واغتيل يوليوس قيصر، ولما تلقت نبأ بأن زوجها وحبيبها مارك أنطونيو قد مات قررت الانتحار حتى لا تقع أسيرة في يد من خلفه على عرش روما، وهي قد تزوجت قبل ذلك اثنين من إخوتها، وكانا أصغر سنًّا.

وقد تفنن المؤلفون العظماء في تصوير حياة وموت كليوباترة: شكسبير وبرنارد شو وبنتوفيل جونيبه وأمير الشعراء شوقي، وأسرف

المؤرخون في صفاتها مثل بلورتارك، حتى الفيلسوف أفلاطون وقف طويلا عند قرارها بالموت، بيدها لا بيد أوكتافيو.

وقد جاءت على لسانها في مسرحية شكسبير عبارة عبقرية عندما قررت أن تموت بالأفعى الكوبرا التي هي في تاج الملكة، رمز للقوة والخلود وعندما التفت الكوبرا حول عنقها قالت: مرحبًا بالفعل الذي يقضي على كل فعل - أي الموت!

وهي العبارة التي جاءت بعد ذلك بثلاثة قرون على لسان الفيلسوف الوجودي هيدجر: فعندما عرف الموت بأنه العام والخاص والفعل الذي يقضي على كل فعل. فالموت عام لكل الناس، وهو خاص لأن كل واحد يموت وحده، والموت فعل وليس وهما، وهو الفعل الذي يقضي على كل فعل. وفي التاريخ أكثر من كليوباترة، أما ملكة مصر فهي كليوباترة السابعة التي تجملت كأنها سوف تزف نفسها إلى ملك الموت!

أما الذي، أعجب الفيلسوف العظيم أفلاطون فهي أنها اختارت الموت ولم تستمع إلى بكاء حاشيتها ومستشاريها، وأكثر من ذلك أنها اختارت اثنتين من الأفاعي والواحدة بعد الأخرى، أما الأولى فقد وخزتها وأوجعتها، أما الثانية فلكي تقضي على الموت نفسه، أو على فلول الموت، يقول أفلاطون إنها جميلة اختارت الموت الجميل!

آي آي وتسي تسي والنوم!

في أول زيارة لبغداد هبطت من السيارة لألتقط صورة لجاموسة مستغرقة في النوم رغم أن درجة الحرارة في الظل خمسون مئوية! فليست الحرارة هي التي شغلتني وإنما نومها العميق، حسد؟ نعم! وعندما توغلت في غابات أستراليا وجدت حيوان الكوالا وقد تعلق في غصن ونام بعمق، اقتربت، هززته بعصا في يدي فتح عينيه ونام في سلام.

– ياسلام!

واحتفظت بهذه الصورة.

ولم يبهرني في جزيرة مدغشقر سوى حيوان (آي – آي) إنه نوع من القردة، يبني عشه في أعالي الأشجار بعيدًا عن الرطوبة والهواء الكثيف بروائح الأزهار والحيوانات، وفوق يتمدد حيوان آي آي وينام، وهو كالفنانين ينام طول النهار، ويقال إنه ينام على جانب ست ساعات وعلى الجانب الآخر ست ساعات!

واحتفظت بهذه الصورة!

ولما ذهبت إلى جامبيا سألت، وضحك الأطباء، فقد أردت أن أرى ذبابة (تسي تسي) التي تلدغ وتصيب الإنسان والحيوان بالنوم حتى الموت، إنها حشرة لونها بني طولها عشرة ملليمترات وهي مصاصة لدم الإنسان والحيوان وقادرة على أن تدخل في دم الضحية طفيليات تتسلل إلى الدم، إلى القلب وتنام الضحية إلى الأبد، بعض الحيوانات أفلحت في المقاومة أو التعايش مع هذه الذبابة، ولكن الإنسان لم يستطع. وكان سؤالي: ألا توجد ذبابة ضعيفة، معتدلة عندها رحمة بالمساكين من البشر الذين يحلمون ببعض النوم لا بكل النوم؟

قال الأطباء ليس بعد ولا نعرف كيف نروض هذه الحشرة الشنيعة وإن كان بعض علماء الحشرات من الألمان استطاعوا أن يجدوا علاجًا مضادًا لهذه الحشرة فتنام حتى الموت، ولكن اكتشفوا أن هذه الحشرة حتى إذا نامت فإنها قادرة على أن تميت أيضًا! وقد حاول بعض العلماء أن يستخدموا عقاقير شديدة التنبيه لمن لسعتهم هذه الذبابة، ولكنها لم تفلح، وحتى الآن فإن المبيدات لم تنجح في القضاء على ذبابة تسي تسي التي تسكن البحيرات الاستوائية والأنهار وأطراف الغابات.

واحتفظت بصورة للعالم الألماني رودلف جروسمان الذي أمسك ذبابة وهو يعمل جاهدًا على تجريدها من سلاحها المميت أو تطويعها أو استئناسها لتكون في خدمة الذين يتمنون النومة الصغرى أن تكون ساعتين أو ثلاثًا – اللهم آمين!

سفاح يجمع الضرائب لأسباب نبيلة!

آليت على نفسي أن أزيل هذه الإهانة، فوراء الشارع الذي أسكنه شارع يحمل اسم «قرة بن شريك»، وهو أحد الولاة على مصر، وقد عينه الوليد بن عبد الملك، وكانت عنده تعليمات واضحة بأن يجمع الضرائب من المصريين ثلاث سنوات مقدمًا؛ لأن الوليد قرر أن يبني المسجد الأقصى، وبناه في سنة 91 هجرية، وبنى أيضًا مسجد الصخرة أو مسجد عمر بفلوس المصريين.

أما كيف جمع هذه الفلوس فمن الجزية التي فرضها على أقباط مصر، وقد استخدم الكرباج والطرد والسجن والتجويع، وكان الذي لا يدفع الجزية من الأقباط يكويه بالنار، وتظل علامات الكي دليلاً على أنه قبطي وعلى أنه رافض، أو رفض بعض الوقت أن يدفع الجزية، ثم دفعها صاغرًا، وقد هرب الفلاحون من الأرض، تركوها حتى بارت، وتركوا حيواناتهم أيضًا، وأعادهم «قرة بن شريك» في السلاسل إلى أرضهم يعملون حتى الموت، ولابد من دفع الضريبة أو الجزية، ومن هذه الأموال التي أُكره المصريون على دفعها بُني المسجد الأقصى ومسجد عمر أيضًا.

وقد ظهر في الأسبوع الماضي كتاب ضخم اسمه «تاريخ مصر» أو على الأصح تاريخ أقباط مصر من تأليف «ساويرس بن المقفع»، وفي هذا الكتاب تعرض المؤلف إلى مذابح «قرة بن شريك» وكيف أن هذا الوالي السفاح تفنن في تعذيب الفلاح المصري، وكيف خطف اللقمة من فمه والرداء من عليه وتركه في العراء، إلا إذا دفع المبلغ الخرافي، أما كيف يأتي بالمال فهذا شأنه، بأن يبيع أرضه وعرضه وأولاده وحيواناته، المهم أن يدفع، وأهم من ذلك يكنز «قرة بن شريك» هذه الأموال ويبعث بها للخليفة لعله يرضى، وقد رضي عنه الخليفة، وحاول المصريون أكثر من مرة اغتيال «قرة بن شريك»، وفشلوا في القضاء عليه، ولما أوفد المصريون من يتظلم، ووقف المندوب لا يطلب رد القضاء وإنما اللطف فيه، ولم يكمل عبارة واحدة حتى طار رأسه عبرة لكل من تحدثه نفسه أن يعترض.

ولابد من إزالة اسم هذا السفاح من شوارع مصر مهما كانت صعوبة تغيير العقود والسجلات المدنية لكل العقارات والمحلات التجارية.

أعطاه مصر ثمنًا لأسباب تافهة!!

إن صح كل ما جاء على لسان المؤرخين عن هارون الرشيد، فلا شك أنه رجل عابث وأن له صفات جحا، فالذي قيل عنه كثير جدًا وكثير منه غير معقول وغير منطقي، ولكن من قال إن مثل هذا الطراز من الناس كان عاقلاً، وإنما هو يمضي الليل في لهو، يلعب بالفلوس وبعقول الشعراء والمغنيات والراقصات، وهو يبحث عن الذي يضحكه ويسليه.

ويأتي بالشعراء الذين ناموا على بابه يتنافسون ويتناحرون من أجل فلوسه ونفوذه، وكما يوزع عليهم الفلوس والجواري يوزع عليهم مملكته أيضًا، فهذا الشاعر أعطاه مالاً وهذا قطعة أرض وهذا وهبه الملك على دولة من الدول، وكما يخلع هارون الرشيد ملابسه على الشعراء «مضحكي الخليفة» والمطربات والراقصات والملحنين، فإنه يهدي الجواري من كل لون وجنسية إلى من يرضى عنهم.

وقد بالغ المؤرخون في ليالي هارون الرشيد واختلط الواقع بالخيال، بل نحن لا نعرف إن كانت هذه الليالي التي رأينا صداها في «ألف ليلة» حقيقة أو خرافة، لا يهم، ولكنها متعة، وكثيرًا ما تمنى القارئ أن يعايش هذه الليالي، فالحياة سهلة: أولها طرب وآخرها

رقص أو أن الطرب ممتد والرقص أيضًا، والضحك والفرفشة لا أول لهما ولا آخر، ولابد أن القارئ المصري يصيبه الغيظ عندما يعلم أن أحد الشعراء ألقى أبياتًا في حضرة هارون الرشيد فأعطاه مصر، أي جعله واليًا عليها، أما الأبيات التي أنشدها فهي:

فأقسم ما كفاي مدت لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلني رأي عليها ولا عقلي

وأعلم أني لم تصبني مصيبة ... من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلي!

بذمتك، هل هذه الأبيات تساوي مصر، وتجعل هارون الرشيد يقف على حيله ويطالب بلواء وسيف ويعينه واليًا على مصر؟

هذا الشاعر حكم مصر سنتين، وخرج منها بنصف مليون دينار، والتاريخ لم يذكر لنا من أين أتى بهذه الفلوس، وكان قد ذهب إلى مصر مفلسًا، أما السبب فهو هذه الأبيات التافهة.

الفلوس والشاة والذئب!

يذوب الحديد أمام الفلوس والمرأة والسلطة، أي الفلوس والجنس والحكم، وليس كلينتون وكيندي ونائب رئيس الوزراء البريطاني برسكوت آخر الذين زلزلهم الجنس، وإنما هناك سلسلة طويلة من الأقوياء أذلهم الجنس، أو أضعفتهم المرأة وأسقطتهم أيضًا، وكثير من الأقوياء انهاروا أمام الفلوس كما انهارت الفلوس أمام المرأة.

ووزير خارجية النمسا القديم مترنيخ هو أول من استخدم المرأة جاسوسة له، فكان يطلقها على خصومه السياسيين، وفي الليل مع الخمر والجمال ينهار الرجال، ويقولون، وتنتقل أخبارهم إلى وزير الخارجية، ولا تزال المرأة الجميلة أكفأ الجواسيس.

ومغامرات جميلة الجميلات مارلين مونرو، لقد تقاذفها الرئيس كيندي وأخوه وزوج أخته، وقيل إن المافيا هي التي اغتالتها، وقيل المخابرات، لأنها كانت تفشي أسرار الرئيس الذي كان يقول لها كل شيء، بما في ذلك عيوب زوجته، وقيل إنه أخبرها بضرب الصواريخ السوفياتية في كوبا، وقيل إن المافيا هي التي دفعتها إلى الانتحار. وفي الأسبوع الماضي نشرت الصحف الأميركية أنها قتلت لأنها شيوعية، ومارلين مونرو مثل سعاد حسني غير مثقفة ولا متعلمة وقد

ضحكوا عليها فهي تزوجت الكاتب الشيوعي آرثر ميللر، وهو فضح جهلها وأخلاقياتها الساذجة في مسرحية «بعد السقوط»، وكذلك سعاد حسني وتحية كاريوكا قد خدعهما الشيوعيون، وكلتاهما لا تثقفت ولا حتى فهمت ما هي الشيوعية، وكلهن ضحايا السفالة الشيوعية والوهم الكبير في حكم العالم وسيطرة النفايات الاجتماعية على الكون! والشاعر القديم استطاع أن يجمع في لوحة بسيطة: الفلوس والأنثى والقوة، قوة الذئب والشاة والفلوس معًا. قال الشاعر القديم:

رأيت شاة وذئبًا وهي ماسكة

بأذنه وهو منقاد لها ساري

فقلت: أعجوبة! ثم التفت أرى

ما بين نابيه ملقى نصف دينار

فقلت للشاة: ماذا الإلف بينكما

والذئب يسطو بأنياب وأظفار؟

تبسمت ثم قالت وهي ضاحكة:

بالتبر يكسر ذاك الضيغم الضاري!

(تأنيس) الحيوان: غلطة!

نحن نرتكب غلطة في ملاحظاتنا لسلوك الحيوانات: الكلاب والقطط والطيور التي تعيش بيننا، وغلطتنا أننا نفهم سلوكها، كما لو كنا ننظر إلى أطفال صغار، من دون أن نعرف أن الحيوان غير الإنسان، وأن سلوكياته مختلفة. مثلاً لو نظرت إلى عيني الأسد فإنه يخيل إليك أنه «سرحان» وأنه لا ينظر إليك. هذا ما نقوله لو رأينا أحدًا ينظر إلينا كالأسد. فأين الغلطة؟ الغلطة أننا قياسًا على مشاعرنا وانفعالنا وردود أفعالنا، نتصور أن الحيوانات كذلك؛ ولذلك فأول درس في علم السلوك الحيواني: ألا ننظر إلى هذه الحيوانات كأنها كائنات بشرية صغيرة، وإنما هي حيوانات مختلفة الأداء والعقل وردود الفعل والغرائز.

وأساس هذه الغلطة أن هناك وهمًا، هو أن الإنسان هو مركز الكون، وأفكاره وسلوكياته هي النمط الذي يمشي عليه الكون: حيواناته وحشراته وكواكبه ونجومه... وقد ظل هذا الوهم قائمًا حتى جاء عالم الفلك العظيم كوبرنيكوس، في منتصف القرن السادس عشر، وأسقط الإنسان من فوق عرش الكون.. فلا هو سيد الكون ولا الأرض مركز الكون، وإنما هي كوكب مثل ألوف ملايين الكواكب تدور حول أحد النجوم.

ولذلك يجب ألا يقوم الإنسان (بتأنيس) سلوك الحيوان.. بل العكس هو الأصح: أن يكون الإنسان حيواني السلوك ليفهم الحيوان!

ومعظم حوادث حدائق الحيوان تقع لهذا السبب.. فالطفل يمد يده للحيوان بلقمة خبز ظنًّا أن هذه شفقة منه أو مداعبة.. ليخطف الحيوان الذراع، ويحاول أن يجرجر الطفل إلى داخل القفص. ونندهش لما حدث! والدهشة سببها هذه المعاني الإنسانية والدوافع الحقيقية للإنسان، ونظنها تنطبق على سلوكيات الحيوان!

والشاعر العربي القديم الذي قام بتربية ذئب بين الأغنام، متوهمًا أنه سوف يكون كلبًا أمينًا على حيواناته - هذا رأيه هو - فلما كبر الذئب الصغير صار ذئبًا كبيرًا مفترسًا. قال الشاعر:

أكلت شويهتي وعقرت مهري فمن أدراك أن أباك ذيب

ويقصد بكلمة (ذيب) ذئب ... فهو ذئب صغير سواء عاش بين الكلاب أو الذئاب أو العصافير..

ولكننا نحن الذين ألبسنا الذئب ملابس الكلاب، وفرضنا عليه أخلاق الوفاء.. وأنه يجب ألا يعض اليد التي أطعمته!

إن هنأوك فلست مهنئا

أهنئه؟ لاأهنئه؟ أهنئه؟ من الواجب أن أفعل ذلك!

فماذا أقول له؟ هل أذهب إليه، هل أبعث ببرقية، هل بباقة ورد، هل بعلبة شيكولاتة، هل بزجاجة عطر؟! هل أقيم له حفلة أجمع فيها الأصدقاء؟! هل أكتب عنه؟! وتكون الكتابة حفلة علنية يشترك فيها ويتفرج عليها الملايين!

وجاءني مادًّا يده يهنئني أنا، وأدهشني ذلك، قال: أنا تلميذك، فإن كنت قد حققت شيئًا فأنت السبب، أنت رسمت الطريق، أنت قدمت النموذج الناجح للإنسان كيف يكون جادًّا، صابرًا، مثابرًا، وكيف أن القراءة تفيد، وأن التأمل ينعش، وأن القرب من المثل الأعلى هو أعظم سياسة، فقد انتقلت العدوى منك إليك!

وقلت: لا، غير صحيح، وإنما أنت موهوب، وأنت تعرف ماذا تريد، وأنت ناجح سياسي، وأنا لست سياسيًّا، صحيح أنا عضو في حزب وأمثله في مجلس الشورى من 23 عامًا، ولكني لست سياسيًّا وإنما أنا مشتغل بالفكر السياسي. وأذكر أن الرئيس السادات قرأ لي مقالاً، فقال: جميل بديع، ولكن أنا لا قدرة لي على هذا النوع من التفكير،

فهو كلام جميل، وتوليد المعاني من المعاني شيء عظيم، ولكن أعظم من ذلك أن تقول لي: ماذا تعمل في إحدى المشكلات. ما الحل، قل لي ما الحل؟ ولا تحدثني عن الطريق إلى المشكلة ولاوزنها وطولها وعرضها وعمرها، لا، قل: كيف أقضي عليها ولا تضيع وقتي في التأمل والتجمل!

والسادات على حق، لأنه ليس مفكرًا سياسيًا، وإنما هو زعيم سياسي، هدفه: الحل هدفه: العلاج، فهو مشغول بالطب العلاجي وليس بالطب الوقائي، ليس بالتشخيص وإنما بإجراء العمليات وبسرعة!

ثم قلت لصديقي: أنت أكثر من ذلك. وأنت تستحق ما هو أعظم، ولم أجد ما أقوله سوى ما قال الشاعر حافظ إبراهيم للشاعر شوقي عندما منحوه لقب (البكوية)، قال حافظ:

إن هنأوك بها فلست مهنئًا إني عهدتك قبلها محسودا

لا وقت للبهلوانيات اللغوية!

في الأدب العربي فترات كان الأدباء يتلاعبون فيها بالألفاظ والمعاني ويسرفون في ذلك.. ويقول النقاد: إنه الفراغ العقلي الذي يجعل الأدباء يفكرون في الزركشة والزخرفة. ولو كانت عندهم قضايا عقلية أو فلسفية ما أضاعوا الوقت في السجع والجناس والطباق. يضربون لذلك مثلاً: مقامات بديع الزمان ومقامات الحريري.

فمن ضمن الألعاب أو التلاعب حرص الكاتب على أن يكتب مقالاً تكون فيه الكلمات بلا نقط تحت أو فوق الحروف.. أو تكون كلمة منقوطة وأخرى غير منقوطة، أو تكون العبارة سهل أن تقرأها من أولها أو من آخرها – كم من الوقت يحتاج الكاتب إلى فبركة ذلك.. وتكون الجملة مثل كلمة «خوخ» أو كلمة «توت» يمكن قراءتها من أولها تمامًا مثل قراءتها من آخرها.

وعندنا في مصر مثل شعبي يقول: قلع مركب ببكر معلق – قلع مركب يعني شراع المركب. فأنت تقرأ العبارة من أولها ومن آخرها أيضًا.

وهناك قصائد للحريري في مقاماته. تقرأ البيت من أوله كما تقرؤه من آخره. ليس بيتًا واحدًا وإنما قصيدة كاملة. فكم من الوقت قد أضاعه في هذه الألعاب اللفظية الشكلية.. مثلاً هذا البيت:

مودته تدوم لكل هول   وهل كل مودته تدوم

وغيره من القصائد الصعبة التي ترهق الكاتب في إظهار القدرة اللغوية والبهلوانية في الصناعة!

وتطورت أساليب الكتابة كما تطورت المواصلات. فاللغة هي أيضًا أداة من أدوات المواصلات والتواصل. فكما كانت أدوات المواصلات بطيئة كالجمل والحصان والسفن، ثم صارت في سرعة الطائرة والصاروخ والبرقيات والكمبيوتر.. فالإنسان ليس عنده متسع من الوقت ليلعب ويمشي على ساق واحدة، وإنما أن يركب الطائرة أو يتحدث في التليفون أو يبعث ببرقية.. فالمواصلات أسرع وأكثر اختصارًا.

مثلاً كاتبنا الكبير نجيب محفوظ نجد عباراته كأنها هودج.. عبارات كثيرة ضخمة فخمة.. وليس على عجل.

ونجد أستاذنا العقاد عباراته كأنها خرسانة مسلحة.. قوية جافة. وأستاذنا طه حسين عباراته كأنها خيوط من الحرير.

ونجد الكاتب الفرنسي ألان عباراته من كلمة أو من كلمتين.. وفيهما يقول كل ما يريد.. وأنت تلهث وراءه ولا يتساقط منك أو منه أي معنى!

السبب: أنت مستعجل وأنا أيضًا!

ولكنني لم أقتلها بعد!

ثلاث فتيات فرنسيات أشعلن النار في مجمع سكني.. وكان الضحايا عشرين من القتلى والجرحى.. وقد اعترفت الصغيرات بأنهن كن يلعبن. فكان هذا اللعب بالنار وأرواح الأبرياء.

وليس غريبًا فنحن من زمن العنف.. العنف السياسي والعنف الرياضي. انظر إلى الأطفال.. ما الذي يتفرجون عليه في التلفزيون: معارك بين جيوش وهمية.. معارك بين عصابات دموية.. بين الحيوانات من سكان الأرض والكواكب الأخرى.. فلا حوار ولا نقاش ولا أمل في السلام، وإنما هي طلقات بنادق ومدافع وقنابل يدوية وذرية. ليلا ونهارا.. الأطفال يتفرجون ويأكلون ويشربون وفي نومهم يكملون معاركهم.. فهم يفطرون على نار ويتغدون على دخان وينامون في أحضان الدبابات والصواريخ.

ولقد أفزعني أن رأيت طفلاً من أقاربي يشترك في لعبة خطيرة، وهي الهجوم على متحف اللوفر وتحطيمه.. من الأبواب ومن السقف.. كيف أنه وقف أمام لوحة «موناليزا» من روائع دافنشي.. وكيف أنه مسح ألوانها أولا.. ثم قطع رقبتها وأصابعها وذراعيها.. اندهشت.. فزعت، شيء عجيب.

وبعدها بشهرين سافرنا إلى باريس، وكان الطفل معي، ففي كل مرة أقول له: هذه مسلة فرعونية. يقول: هدمتها. وهذا هو متحف اللوفر، يقول: هدمته وأحرقته.. واقتحمته من الباب والشباك.. وأقول له: هذا هو قبر نابليون.. يقول: أعرفه.. لقد قفزت من البلكونة فوق القبر.. وأخرجت نابليون من قبره ونفخت فيه فوقف يحاول أن يكلمني وأن يأمرني أن أخرج.. لم أستمع لما يقوله وأخرجته.. ودوخته في شوارع باريس، فلما أراد أن يعود إلى قبره لم يجده وأطلقت عليه الذئب الأسود فابتلعه.

ولما حاولت أن أنزع منه غرائز العنف والدم والدمار ونظرت إلى البحيرة التي حولنا وغابة بولونيا البديعة وكان يأكل السندوتش، قلت له: انظر إلى الزوارق الناعمة والطيور الجميلة.. ما رأيك؟

فقال: آه.. ولكني لم أقتلها بعد!

الـعـراق - لم يعد دولة!

ارتفعت صور صدام حسين في مظاهرات العراق. والمعنى أنهم يعترضون على الحكام الجدد، وأنه أفضل وأرحم كثيرًا من هؤلاء الحلفاء للأمريكان ضد الشعب العراقي. وأن الحكام الجدد أعدى للعراق من أمريكا وإسرائيل. فهم يريدون العراق ممزق المذاهب والأجناس والأديان ويريدون عزلته التامة عن أشقائه العرب.

كان الشعب العراقي ككل الشعوب العربية الأخرى قد لفت أعناقها وحناجرها حول أسخف هتاف عرفه الثوار: بالروح بالدم نفديك ياصدام، وقبل ذلك ياجمال.. ياسادات.. قال الشاعر العربي القديم:

دعوت على عمرو فمات فسرني فعاشرت أقوامًا تبكّي على عمرو!

وهم في العراق يبكون على صدام.. ولكنه بكاء البائس.. بكاء الإنسان الذي أخفق في نفسه وجسده وشرفه ودينه وتاريخه.

فمن أية زاوية نظرت إلى العراق فأنت أمام دول وشعوب وأديان وأجناس.. واستطاع صدام كما استطاع تيتو ولينين صهرها في بوتقة واحدة بالقوة والقهر والنار.. فالشعوب ترى أنها، ككتلة واحدة، تصبح قادرة على مواجهة الأعداء الطامعين في أرضها وبترولها

وشعبها. والذين عندهم حل جاهز لكل مشاكل العراق: تفتيت العراق. فبدلاً من أن يكون دولة واحدة يكون دويلات.. فئات طبقات.. فلاحين وعمالاً.. أبناء الوديان وأولاد الآبار.

شيء مضحك أن يطلب حكام العراق من العرب أن يقفوا إلى جوار الدولة الرافضة للعروبة.. شيء عجيب أن يطلب حكام العراق من العرب أن يوفدوا مندوبيهم إلى دولة عاجزة عن حماية مندوبي الدول العربية.. وما قصة سفيري مصر والجزائر ببعيدة.

فإن كان العراق في حاجة إلى ضحايا أكثر من ضحاياه، فالمطلوب من الدول العربية غير الشقيقة أن تبعث مجرميها لتنفذ أحكام الأعداء فيهم في بغداد.. وليس سفراءها ووزراءها!

لقد انكشفت أمريكا كبرى الدول العظمى في الدنيا.. فلا هي قادرة على مواجهة أعاصير الطبيعة ولا أعاصير الشعوب. وإذا كانت «القاعدة» تتصيدهم في العراق.. فإن الذي يتصيدهم ويدفعهم إلى الانتحار ليس «القاعدة» ولا الشعب العراقي.. أما الإعصار فسوف يمكن إصلاح ما أفسده في سنة أو سنتين..

أما إعصار الشعب العراقي، فسوف يبقى عشرات السنين!

وزير الخارجية «مزنوق»؟!

سمعت وزير خارجية أمريكا يقول للسادات: كانت عندي أكبر أزمة في حياتي، فأنا أريد أن أذهب إلى دورة المياه وأحد الزعماء لم يتوقف عن الكلام ثلاث ساعات، هو يقول في ساعة ويترجمون له في ساعة، وأنا أقول ويترجمون.

ولا يعرف الوزير ما الذي يمكن أن يحدث لو استأذن ليذهب إلى دورة المياه والرئيس يتكلم من المؤكد أنه سيجد من يفسر ذلك تفسيرًا سياسيًا لا يخطر على بال أحد، وفي نفس الوقت سوف يتجاهلون تمامًا نداء الطبيعة التي لا علاقة لها بالسياسة! ومصيبة أخرى وفضيحة لو أن الوزير غصبًا عنه، تبول في البنطلون، وقال الوزير للسادات: إن أول شيء سوف أعمله عندما أعود هو أن نضع نصًا في الدبلوماسية يسمح للمفاوض بأن يذهب إلى دورة المياه، دون أن تكون لذلك أية دلالة سياسية!

وقال الوزير للرئيس إنه عندما ذهب إلى دورة المياه وجدها قذرة – أي أن الرئيس لا يذهب إليها مهما طال كلامه وجلسته؟!

أتذكر عندما استضفت محمد علي كلاي لبرنامج من أربعين عامًا رفض، فقلت له إن الرئيس عبد الناصر وكل زعماء الأمة العربية والإسلامية في انتظاره، فوافق، وحشدنا له كل الموظفين والسعاة في التلفزيون وركز الضوء عليه هو حتى لايرى أحدًا، وكانت المشكلة أنه يريد دورة المياه، وقفزنا وراءه في كل أدوار التلفزيون وكانت دورات المياه مغلقة، فزعمت له أن عندنا حديثًا نبويًا يقول إن المسلم لا يذهب إلى دورة المياه إلا بعد الإفطار، والحديث مكذوب طبعًا، وبعد ثلاث ساعات من الحوار المضحك، انطلق يجري بكل قوة من التلفزيون إلى جناحه في فندق هيلتون!

ومنذ أيام حدث ما هو أفظع، فالرئيس بوش أمسك ورقة وقلمًا والتفت إلى وزيرة الخارجية، وتطلعت كل العيون إلى أقوى رجل في العالم، إن كلمة واحدة منه تهد الدنيا وتوقفها على رأسها، أما الذي كتبه الرئيس الأمريكي فهو يسأل إن كان من الممكن أن يذهب إلى دورة المياه، وكيف، والتقط مصور (وكالة رويترز) البريطانية الكلمات التي كتبها الرئيس بوش، وعرضوها على أحد خبراء الخطوط، وقال كلامًا في تفسير حجم الحروف والمسافة بين الكلمات، وما دلالة ذلك على حالته النفسية وعلى مدى الحالة العصبية التي يعانيها الرئيس – مثل كل إنسان آخر.

ولا أحد رأى الرئيس يجري ولا رأوه يتوارى خلف معاونيه، وكما أنه أمسك نفسه، فقد أمسك الزعماء أنفاسهم، فالحمد لله على سلامة الدنيا بسلامة الرئيس!

أعطني مكانًا خارج الأرض!

عبارة قالها العالم الرياضي الفيزيائي أرشميدس من 23 قرنًا لم نعرف دلالتها إلا أخيرًا. وأرشميدس هو الذي اكتشف أن الإنسان إذا نزل إلى حوض مملوء ماء فالماء الذي خرج من الحوض يساوي بالضبط حجم الإنسان، وهو الذي اكتشف الجاذبية، وهو الذي صنع الكثير من الأسلحة الحربية مما أدى إلى ذبحه من القوات المعادية.

أما العبارة التي قالها واستقرت في التاريخ واجتهد المفكرون في تفسيرها فهى: أعطني مكانًا خارج الأرض وأنا أحرك لك الأرض.

وأمسك علماء الرياضيات أوراقًا وأقلامًا واهتدوا إلى أن هذا المكان – إن وجد – وامتدت منه أعمدة من الحديد أو الخشب لكي تحرك الكرة الأرضية فلا بد أن يكون طولها ألوف ملايين الكيلومترات؟!

وإلى هنا انتهى اجتهاد العلماء. وقالوا لعله يريد أن يقول إننا ما دمنا مندمجين في مشاكلنا وعالمنا، فلن نستطيع أن نحدث به أي تغيير، إلا إذا ابتعدنا عنه لنرى أوضح، ولهذا كان كل الثوار في التاريخ فكروا ودبروا وهم خارج نطاق بلادهم، فقد رأوها أوضح وأعمق.

ولكن عرفنا فيما بعد مدى صحة هذه العبارة، أو هذه النبوءة، لقد عرفنا سفن الفضاء، التي هي في أماكن خارج الأرض وصورها بالكاميرات ونرصدها بالرادار ونسجلها بالإشعاعات تحت الحمراء والبنفسجية، فنعرف ما تحت الأرض من ماء ومعادن وحركة العواصف والأعاصير، وهجرات الأسماك والطيور وأقمار التجسس على حركات الجيوش والطائرات والصواريخ، والتجسس على المكالمات الهاتفية بين الدول، كل ذلك عرفناه من بقع طائرة حول الأرض.

ولما أطلق الأمريكان المراصد المدارية حول الأرض، وخصوصًا مرصد «هابل» عرفنا الكثير عن أعماق الكون وأصله ومتى بدأ هذا الكون الذي نعرفه، وهو أحد ملايين ملايين الأكوان، وقد حدد لنا هذا المرصد عمر الكون بحوالي 14 ألف مليون سنة، وتحددت بعد ذلك أعمار الشمس والكواكب وكوكب الأرض، وإذا أردنا أن نكشف سرًّا جغرافيًا أو جيولوجيًا طلبنا إلى هذه المراصد أن توجه عدساتها إلى أية مواقع أرضية فتصور لنا هواءها وترابها وأعماقها، وتسجل لنا أعمارها، وما في أحشائها من معادن وبترول، بل تسجل لنا مسار المياه الجوفية، بالقرب من الأنهار أو البحيرات.

والمعنى: أننا قد وجدنا أماكن خارج الأرض لكي نحرك بها هذه الأرض وغيرها من الأراضي – أو الأراضين – في هذا الكون!

إنَّ الظلامَ الذي يَجْلوكَ ياقمر!

أنا أحد المعجبين بالغلبانة المسكينة التي احترقت على نيران ليست هادئة لكبار أدباء وشعراء زماننا: مي زيادة (1885 – 1941) اللبنانية السورية الفلسطينية السمراء الجميلة، أنا أعرف جانبًا من حياتها المحترمة، لقد كانت فراشة عندها عزيمة لا تكف عن الطيران بالقرب من أشد النيران التهابًا في زمانها لعلها تبقى بلا جروح، فقد أحبها كل أدباء العصر: العقاد وطه حسين ولطفي السيد ومصطفى صادق الرافعي وغيرهم. أما هي فقلبها في مكان آخر مع إنسان آخر، تحبه ولا يحبها، وهم يحبونها ولا تحبهم، رأيت خطاباتها للأستاذ العقاد، واحتفظت بخطابات العقاد لها ونشرت بعض هذه الخطابات في كتابي (في صالون العقاد– كانت لنا أيام)، وما كتبته مي زيادة للعقاد وما كتبه العقاد لها يذكرني بالسيرك والسير على الحبال، فكلاهما يمشي على حبل من الخوف والحرص حتى لايقال إنها أحبت من لا يحبها، وحتى لايقال إنه أحب من لا تحبه، وظهرت كتب كثيرة عن الحب الوحيد في حياتها حبها للشاعر جبران خليل جبران – وقد ظهر أخيرًا في لبنان ملف لأوراق مي للمفكر اللبناني أمين الريحاني، وحكى لنا كيف استدرجها أهلها إلى بيروت ليرثوا ثروتها

فوجدت نفسها في مستشفى العصفورية للأمراض العصبية، مما ضاعف اضطرابها وجنونها وموتها. واحد فقط هو الذي أحبها، وتقول مي إنه كذب كثيرًا فيما قال، وأقول أنا: لقد كان أجمل وأروع الكذابين، فقد كتب عنها ولها تحفًا أدبية: رسائل الأحزان وأوراق الورد والسحاب الأحمر، وقال وكال وجال وتغنى وتمنى وبكى، وكانت بكائياته أدبًا جميلا، لايهم إن كان قد أحب أو تظاهر بذلك، ولا يهم أين وقع منها كل هذا الفن البديع، وكانت مي تشكو من الذي كتبه مصطفى صادق الرافعي، وهاجمته كثيرًا، وكان الرافعي ثقيل السمع بل كان قد وضع عجينًا في أذن وطينًا في الأذن الأخرى، أو الطين في الاثنتين.

وكان الرافعي عنده أمل، وكان أمله أنه سوف يجيء عليها زمان تعرف فيه من الذي أحب فأخلص، ومن الذي أحب فاحترق، ولكنه كان يحلم بأن يكون الشهيد الوحيد الذي جاء في الحديث النبوي الشريف: من أحب فعف فكتم مات شهيدًا، وهو أحب وهو كتم الحب ولما ذكره لم يشأ أن يذكر اسمها. وفي كتابه (السحاب الأحمر) يقول الرافعي في نهايته، موجهًا كلامه لها، أو لعله، يقول:

يامن على البُعْد ينسانا ونذكُرُه   لسوفَ تَذكُرنا يومًا ونَنْسَاكَا

إن الظلام الذي يجلوك يا قمر   له صباح متى يدركه أخفاكا!

هون عليك .. اضحك أسبوعًا!

كلنا يضحك لسبب ولغير سبب.. معظمنا إذا أراد أن يضحك ابتسم، وبعضنا إذا أراد أن يبتسم قهقه، وكلنا نخفف التوترات التي نئن تحتها بأن نضحك، والضحك هو عاصفة تطرد السحب القاتمة أو تدفعها إلى أعلى فتبرد وتتساقط مطرًا، والإنسان وبعض الحيوانات تضحك أيضًا، أو تبدو كذلك، فكما أن البكاء غريزة فالضحك أيضًا.

وكما أن الأطباء ينصحونك بالتفريج عن نفسك بالتنزه والتغيير والتنقل من مكان إلى مكان ومن إنسان إلى إنسان، فهم أيضًا ينصحون بالضحك وعليك أنت أن تختار الذي يضحك ويخفف عنك.

عندك الشاشات من كل لون وحجم والسينما والمسرح وجلسات الفرفشة، والفيلسوف الفرنسي برجسون يتساءل عن الذي يجعل الإنسان يضحك، فوجد أن من بين الأسباب: المفاجأة غير المنطقية، مثلاً كأن تمشى في الشارع وفجأة تجد الذي يمشى أمامك قد سقط دون سبب واضح، أو كأن ينهض من مقعده فيمسك به مسمار في البنطلون، وعلى الرغم منك تضحك، مع أن الموقف لا يبعث على ذلك، وكل أفلام شارلي شابلن الصامتة تعتمد على هذه القاعدة النفسية.

أحد علماء النفس الإنجليز يريدك أن تذهب إلى أبعد من ذلك، ويتساءل: ولماذا لا نجعل الضحك أسبوعًا من كل سنة، ففي الأسبوع تفرغ كل شحنتك من الهم والغم، ويقول: لا تضع قاعدة أو برنامجًا، وإنما تقرر بوضوح واقتناع كما كان يفعل الشعراء في الجاهلية: اليوم خمر وغدًا أمر، فإذا جاء الغد وجدت هذه العبارة تتحدث عن الغد، وهكذا فالغد لن يجيء، ولكن لابد أن نجعله يجيء بعد أسبوع، فلا تضايق نفسك بأي شيء وإنما حاول أن تبتسم.

لقد حدثنا الأديب المصري إبراهيم عبد القادر المازني أنه جلس إلى عدد من الأصحاب يقامرون، وهو لا يفهم ماذا يفعلون فرسم على وجهه ابتسامة، فسرها أحد اللاعبين أنه كشفه وفضحه وعرف أنه يغش في اللعب، فما كان منه إلا أن سحبه إلى جانب وقال له: أعمل إيه، كلهم لصوص ياسيدي، فأنا يا سارق يا مسروق فقررت أن أكون سارقًا!

والرجل لا يعرف أن المازني يبتسم وأنه يخفى بذلك جهله بهذه اللعبة، وفي نفس الوقت يقاوم الضحك والملل في متابعة ما لا يفهم، وهي أيضًا قاعدة هامة في الضحك وهي أنه حتى إذا لم تكن تفهم فعليك أن تتظاهر بذلك.

حاول لا يومًا وإنما أسبوعًا، وقد بدأت أنا هذا الأسبوع بكتابة هذا المقال والضحك علينا نحن الاثنين!

الفهرس

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستاذ

أنيس منصور

(أ) ترجمة ذاتية:

1 – في صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
2 – عاشوا في حياتي.
3 – إلا قليلا.
4 – طلع البدر علينا.
5 – البقية في حياتي.
6 – نحن أولاد الغجر.
7 – من نفسي.
8 – حتى أنت يا أنا.
9 – أضواء وضوضاء.
10– كل شيء نسبي.
11– لأول مرة.
12– شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

13– الحائط والدموع.
14– وجع في قلب إسرائيل.
15– الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل).
16– عبد الناصر – المفترَى عليه والمفترِي علينا.
17– في السياسة (3 أجزاء).
18– الدين والديناميت.
19– لا حرب في أكتوبر ولا سلام.
20– السيدة الأولى.
21– التاريخ أنياب وأظافر.
22– الخالدون مائة – أعظمهم محمد (ﷺ).
23– على رقاب العباد.
24– ديانات أخرى.
25– وكانت الصحة هي الثمن.
26– الغرباء.
27– الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

28– عزيزي فلان.
29– هي وغيرها.
30– بقايا كل شيء.
31– يا من كنت حبيبي.
32– قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

.. للأديب السويسري فريدريش ديرنمات:
33– رومولوس العظيم.
34– زيارة السيدة العجوز.
35– زواج السيد مسيسبي.
36– الشهاب.
37– هي وعشاقها.
.. للأديب السويسري ماكس فريش:
38– أمير الأراضي البور.
39– مشعلو النيران.
.. للأديب الفرنسي جان جيرودو:
40– من أجل سواد عينيها.
.. للأديب الأمريكي أرثر ميللر:
41– بعد السقوط.
.. للأديب الأمريكي تنسي وليامز:
42– فوق الكهف.
.. للأديب الأمريكي يوجين أونيل:
43– الإمبراطور جونس.
.. للأديب الفرنسي يوجين ليونسكو:
44– تعب كلها الحياة.
.. للأديب الفرنسي أداموف:
45– الباب والشباك.
.. للأديب الإسباني أرابال:
46– ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

47– الحنان أقوى.
48– من أول نظرة.
49– طريق العذاب.
50– ألوان من الحب.
51– شباب.. شباب.
52– مذكرات شاب غاضب.
53– مذكرات شابة غاضبة.
54– جسمك لا يكذب.
55– الذين هاجروا.
56– غرباء في كل عصر.
57– أظافرها الطويلة.
58– هموم هذا الزمان.

59- زمن الهموم الكبيرة.
60- الحب الذى بيننا.
61- عذاب كل يوم.
62- كيمياء الفضيحة.
63- كل معاني الحب.

(و) دراسات علمية:

64- الذين هبطوا من السماء.
65- الذين عادوا إلى السماء.
66- القوى الخفية.
67- أرواح وأشباح.
68- لعنة الفراعنة.
69- دقات الصحة هي الثمن.

(ز) نقد أدبي:

70- يسقط الحائط الرابع.
71- وداعًا أيها الملل.
72- كرسي على الشمال.
73- ساعات بلا عقارب.
74- مع الآخرين.
75- شيء من الفكر.
76- لو كنت أيوب.
77- يعيش.. يعيش.
78- الوجودية.
79- طريق العذاب.
80- وحدي.. مع الآخرين.
81- ما لا تعلمون.
82- لحظات مسروقة.
83- كتاب عن كتب.
84- أنتم الناس أيها الشعراء.
85- أيها الموت.. لحظة من فضلك.
86- أوراق على شجر.
87- في تلك السنة.
88- دراسات في الأدب الأمريكي.
89- دراسات في الأدب الألماني.
90- دراسات في الأدب الإيطالي.
91- فلاسفة وجوديون.
92- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

93- حول العالم في 200 يوم.
94- بلاد الله خلق الله.
95- غريب في بلاد غريبة.
96- اليمن ذلك المجهول.
97- أنت في اليابان وبلاد أخرى.
98- أطيب تحياتي من موسكو.
99- أعجب الرحلات في التاريخ.
100- ماذا يريد الشباب؟
101- الرصاص لا يقتل العصافير.

(ط) مسرحيات كوميدية:

102- مدرسة الحب.
103- حلمك يا شيخ علام.
104- مين قتل مين؟
105- جمعية كل واشكر.
106- الأحياء المجاورة.
107- سلطان زمانه.
108- العبقري.
109- كلام لك يا جارة.
110- فوق الركبة.
111- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
112- يوم بيوم.
113- إنها الأشياء الصغيرة.
114- إلا فاطمة.
115- القلب أبدًا يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

116- حقنة بينج.
117- اتنين.. اتنين.
118- عريس فاطمة.
119- من الذي لا يحب فاطمة؟
120- غاضبون وغاضبات.
121- هي وغيرها.
122- هي وعشاقها.
123- العبقري.
124- القلب أبدًا يدق.
125- يعود الماضي يعود.

(ك) كتب (مقالات):

126- ثم ضاع الطريق.
127- النجوم تولد وتموت.
128- هناك أمل.
129- أحب وأكره.
130- الحيوانات ألطف كثيرًا.
131- مصباح لكل إنسان.
132- أتمنى لك.
133- لعل الموت يتسانا.
134- اقرأ أي شيء.
135- ولكني أتأمل.
136- حتى تعرف نفسك.
137- الحب والفلوس والموت.. وأنا.

138- نحن كذلك !!
139- اللهم إني سائح.
140- كائنات فوق.
141- تعال نفكر معًا.
142- آه لو رأيت !
143- النار على الحدود: لعبة كل العصور.
144- انتهى زمن الفرص الضائعة !
145- هناك فرق.
146- الرئيس قال لي.. وقلت أيضًا - الجزءان الأول والثاني.
147- يا نور النبي.
148- وأنت ما رأيك؟
149- حضارة الإوز والبقر.
150- حلمنا الجميل.
151- ضاع الجيل ضاع.
152- قالوا (الجزءان الأول والثاني).
153- وآخرتها.
154- من أول السطر.
155- أظافرها الطويلة.
156- القلب لا يمتلئ بالذهب.
157- تكلم حتى أراك.
158- الذي خرج ولم يعد.
159- ليلة في بطن الحوت.
160- والله زمان يا حب.
161- أجيال من بعدنا.
162- قلبك يوجعني.

(ل) الترجمات القصصية:

163- رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكي أرفنج والاس.
164- (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار.
165- (لو كنت مكاني) للأديب السويسري ماكس فريش.
166- (قصص مورافيا) للأديب الإيطالي ألبرتو مورافيا.
167- (الجلد) للأديب الإيطالي كورتسيو ملبارته.
168- (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكي جينز برج.

(م) الترجمات الفلسفية:

169- الفلسفة الوجودية الألمانية ـ لإميل تسلر.
170- الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك رسو.
171- معنى العدم عند هيدجر وسارتر - لجانيت أردمان.
172- مسرح العبث الفرنسي - لإتيان ماريبو.
173- الفيلسوف الروسي برديائف - لفيكتور لوزتسيف.
174- من كيركجور إلى مارسيل - لأنطوان بابيف.
175- سيمون دبوفوار تلميذة رصينة - لفرنسواز روسلان.
176- رسائلها إليه - لفرنسواز روسلان.
177- فاشلون لكن نبلاء - لجان ماري روار.
178- ما الميتافيزيقا؟ - لمارتن هيدجر.
179- الوجودية فلسفة إنسانية - لجان بول سارتر.
180- فلسفة حنا أرنت - تلميذة للفيلسوف الألماني مارتن هيدجر - لآدم برجشتاين.
181- كروتشه فيلسوف الحرية - لإيرابيلا دلورنتس.



أظافرها الطويلة

لا أستطيع أن أحصي عدد المرات التي كتبت فيها عن غادة السمان التي كانت زميلة صحافية ولا أذكر أنني رأيتها وإن كنت قد تلقيت منها خطابات صغيرة في ذلك الوقت، ولكنها بهرتني، وكنا - نحن المصريين - مبهورين بالسوريين الذين يتذوقون الشعر وعندما غنت نجاة قصيدة: «أيظن» تعجبنا لهذا الكلام وكنا نقول إن نزار قباني هو شاعر «أيظن» مع أن له قصائد أخرى أكثر وأجمل ولكن عندما قرأت رواية «أنا أحيا» لليلى بعلبكي تمنيت أن تكون أقصر. أما الذي هزني وأدهشني هذه العبارات النابية والكلمات البذيئة على لسان البطلة ورأينا في ذلك الوقت أن هذا خروج، وأن الخروج هو بداية الحرية، وأن الحرية لها أنياب وأظافر. وأن فلسفة المرأة الجديدة هي المخالب والأنياب تمزق بها ملابس الرجل وظلمه وخداعه وهذا هو الجديد.

